نظرة جديدة على

الأربعة عشر قرناً الماضية (*)

جميل أن يحتفل المسلمون بمطلع القرن الخامس عشر الهجري ..ولكن كيف يحتفلون ؟ وعلى أي صورة يكون هذا الاحتفال ؟ ومن البدهي أن احتفالنا هذا لن يكون مهرجانات ، واجتماعات نتبادل فيها التهاني ، ونسبح في بحار السرور وتغمرنا موجات الحبور! لا . ليس هذا !! فمرور الأعوام والأيام والعصور والدهور والأزمان والقرون في ذاته لا يستحق سروراً ولا حبوراً، ولا يستوجب تهنئات ولا تبريكات ، بل ربما استوجب عكس ذلك. وإنما الذي يستوجب السرور والتهنئة هو ما حققه الإنسان في (الزمن) من مجد أو انتصار ، وما وفق إليه من خير وصلاح.

ومن هنا كان احتفال المسلمين بإطلالة القرن الخامس عشر نوعاً من المراجعة والمحاسبة ، ولوناً من التصحيح وضرباً من التخطيط .

نحن أمة ذات رسالة فماذا صنعنا تجاهها ؟ نحن ورثة أمجاد فماذا فعلنا بها ؟ نحن أصحاب حضارة. فماذا أدينا نحوها؟ ومن قبل ومن بعد نحن ورثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ترك فينا كتاب الله المعظم وسنتَه المشرفة . فكيف كان استمساكنا بكتاب الله وسنة نبيه؟

(*) نشرت في مجلة الدعوة القاهرية : العدد ٥٦ ، صفر سنة ١٤٠١هـ - ديسمبر ١٩٨٠م.

إن احتفال الأمة الإسلامية يجب أن يكون وقفة مراجعة ومحاسبة ، وأحسب أننا إذا صدقنا مع أنفسنا في هذه المحاسبة والمراجعة ، فلن يكون عندنا مجال للسرور والحبور، فالعبء ثقيل ، وماضاع منا كثير ، والطريق أمامنا وعرة ، وضع فيها أعداؤنا -وماأكثرهم- ركاماً فوق ركام حتى أضلّونا عنها أو كادوا ..

طمسوا تاريخنا وشوهوه :

وحتى لا نستلهم العبرة ، ونأخذ الخبرة من تاريخنا ، وحتى لا نستلهم ماضينا وأمجادَنا ، طمسوا تاريخنا وشوهوه. حتى نفقد النموذج الذي ننسج على منواله، وننفذ شريعة ربنا ونطبق قرآننا وسنتنا على غراره ، ولقد نجح أعداؤنا -للأسف- في هذا كل النجاح ، فصرنا نضرب بسيفهم ، ونتكلم بلسانهم ، وننطق بلغاتهم ، فحاكمنا تاريخنا كما أرادوا لنا- وجلدناه ، وشنقناه وصلبناه. وا أسفاه .

صورة التاريخ التي أرادها أعداؤنا :

وصرنا نرى عثمان بن عفان شيخاً صالحاً لكنه عاجز عن القيام بأعباء الحكم . ضعيف أمام أقاربه ورؤوس أقاربه ، فقصرَ الولاياتِ عليهم ، وملكهم رقاب المسلمين مما أدى إلى الثورة عليه وقتله ، وأما الإمام علي كرم الله وجهه، فقد كان شديداً في الحق ، مستقيماً عليه ، ولكنه لم يكن خبيراً بالسياسة والحكم ، مما أدى إلى الفشل والهزيمة أمام معاوية.

أما معاوية ، فكان داهيةً أريبا ، اتخذ قميصَ عثمانَ ذريعة للوصول إلى الحكم، وجعل الخلافة مُلكاً عضوضاً ، أعاد به سطوةَ بني أمية وهيبتها ، وانتقم لما أصابها في بدر، والدولة الأموية كانت دولة عنصرية متعصبة للعنصر العربي، متعطشة لسفك الدماء ، مما أدى بها إلى السقوط ، حيث تحزب ضدّها الفرسُ خاصة، والأعاجم عامة فأسقطوها ، وأما الدولة العباسية، فقد اعترفت للفرس بفضلهم عليها، ثم نقلت عنهم أساليب الترف والنعيم ، والخمور والعطور، والغناء والنساء ، حتى سقطت ضحية هذا الانحلال ؛ ولم يسلم صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فقسمناهم أحزاباً ، وجعلنا

فيهم يميناً ويساراً .

بأيدينا صنعنا هذا ؛ أو بالتحديد أريد لنا أن نصنعه ، بأيدينا كتبنا هذا ثم قرأناه ، وعلّمناه أبناءنا.

أثر تشويه التاريخ :

ولما طمسنا تاريخناوجلدناه وصلبناه ، فقدنا القدوة ، والأسوة والنموذج ، فكان طبيعياً أن يتجه منا من يتجه صوب الشرق ، داعياً إلى اعتناق الشيوعية مذهباً، متخذاً دولها نموذجاً يُحتذى ويُقتدى به ، ومن يتجه نحو الغرب داعياً إلى اعتناق الرأسمالية مذهباً، متخذاً دولها نموذجاً يُحتذى ويُقتدى، ومن يتجه نحوالشمال داعياً إلى اعتناق (الليبرالية) مذهباً ، متخذاً دولها نموذجاً يُحتذى ويقتدى، ثم يقف الجميعُ أمامَ من يتجه إلى الإسلام داعياً إليه على غرار الأمويين ؟ على غرار العباسيين ؟ على غرار عهد هارون الرشيد ؟ على غرار عصر العثمانيين؟ قائلين: على أي نمط ؟ وأين النموذج الذي يُحتذى ويُقتدى؟

لابد من نظرة جديدة :

نعم لا بد من نظرة جديدة إلى القرون الأربعة عشر الماضية .. لا بد من نظرة جديدة إلى تاريخنا نمسح عنه ما أصابه من تشويه وتجهيل وَبَتْرٍ ، ونجلوه في صورته الصادقة ، نظاماً لم تر الدنيا مثله ، ولم تسعد البشرية ، إلا في ظله.

ومن حسن الحظ أن كل من له صلة بالتاريخ يردد الآن هذا النداء. فالذين كتبوا التاريخ الإسلامي مشوهاً مجرحاً ، هم أنفسهم يقرون أن عملهم ناقص، وأنهم في حاجة إلى مراجعته وإعادته.

وإذ ندعو إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، فنحن على يقين من أننا نكتب تاريخاً لبشر ، ليسوا معصومين بحال من الأحوال ، فنحن لا نريد أن نجامل تاريخنا، ولا نريد أن نضفي عليه هالة من القداسة ؛ فإن ذلك أيضاً

ضد الحقيقة، وربما كان فيه من الخطورة مثل مافي التشويه والتجريح ، وإنما نريد الحقيقةَ والحقيقة وحدها، وأحسب أن الوصول إلى الحقيقة ليس عسيراً، ولا مستحيلاً ، ولكنه لاشك يحتاج إلى بذل جهد وعناء

المنهج الذي ندعو إليه :

وربما كانت الخطوات التالية منهجاً وطريقاً إلى الحقيقة التي ننشدها:

(١) لا يُكتب التاريخُ الإسلامي إلا بقلم مسلم :

ولسنا نعني بذلك أن يكون صاحبُ القلم مسلماً باسمه وشهادة ميلاده، وإنما نعني أن يكون صاحبُ القلم مؤمناً صادق الإيمان ، مسلماً كامل الإسلام واعياً بحقائق الإسلام ، مدركاً لأثر رسالته وقيمتها بالنسبة للبشرية لأنه ما لم يكن كذلك، فلن يستطيع أن يستوعب الحدث، ولن يقدر على تفسيره.

فلكي يفهم الإنسانُ الحادثة ويفسرها، ويربطها بما قبلها وما تلاها، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها: روحية، وفكرية ، وحياتية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها:معنوية ومادية ، وأن يفتح روحَه وفكرَه وحسَّه للحادثة ، ويستجيب لوقوعها في مداركه.

فأما إذا تعطل في المؤرخ عنصر الروح، فلن يستجيب (للحادثة) استجابة كاملة، وسيحرمه ذلك من عنصر هام من عناصر إدراكها ، وفهمها على الوجه الكامل . ومن ثم يجعل تفسيرها خاطئاً أو ناقصاً.

ويظهر ذلك بوضوح في البحوث الغربية عن التاريخ الإسلامي ، حيث يفتقدون عنصر الروحية الغيبية ، راجع تفصيلاً لهذا المعنى ما كتبه الشهيد سيد قطب في بحثه (في التاريخ . فكرة ومنهاج).

(٢) جمع الأخبار والروايات كلها ووضعها موضع النظر والنقد :

ولا شك أن هذه مهمة من أشق وأصعب المهام تحتاج إلى وزن وتقدير الروايات والأخبار في ضوء علم الجرح والتعديل ، وهو علم «لايطيقه إلا الفحول» كما قال ابن الصلاح.

وعندما يتم ذلك ، ستسقط أحكام وآراء شاعت وثبتت ، وصارت مسلمات وبدهيات . ويكفي مثالاً على ذلك ما قيل عن خرافة التحكيم بين «علي» و «معاوية» -رضي الله عنهما- حيث تسجل كتب التاريخ على اثنين من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسوأ اتهام، فاتهم عمرو بن العاص بالخبث والخيانة والكذب ، واتهم أبو موسى الأشعري بالغفلة والبلاهة.

وقد كتب في ذلك قديماً كثير من العلماء ، على رأسهم الإمام ابن العربي في (العواصم من القواصم) وحديثاً العلامة محب الدين الخطيب ، في تعليقاته القيمة على العواصم. وثبت أن الأمر على غير ما تناقلته كتب التاريخ ولم يكن من هذا الذي يُلصقونه بالصحابيين الجليلين شيء، ومن أعجب العجب أن يبتعد كل من يكتب التاريخ في أيامنا عن مثل هذه التحقيقات المتاحة له الميسورة أمامه، وتظل هذه التهم مُصوّبة إلى صحابيين من أجلاء الصحابة، رضوان الله عليهم.

(٣) تفسير الأحداث وربط بعضها ببعض والعوامل التي أدت إليها وبنتائجها :

وهنا لا بد أن يكون المؤرخ مطبوعاً ملهماً قادراً على استيعاب الأحداث ، مستحضراً مُناخها الذي وقعت فيه. فمثلاً حين يقول أحد المؤرخين : إن طلحة رضي الله عنه خرج على «علي»- كرم الله وجهه- خوفاً على ثروته إذا استتب الحكم لعلي ، لأن طلحة كان قد أثرى من الفتوح ، وصار يمثل (اليمين)في عتوه وجبروته ، فخشي من عليٍّ الذي كان يمثل (اليسار)في صرامته وشدته ، حينما يقول أحد المؤرخين ذلك ، مفسراً خروجَ «طلحة» على «عليٍّ» رضي الله عنهما، فهو لاشك غير

قادر على تمثل الأحداث واستيعاب المناخ الذي دارت فيه، بل أمامه مضاربات عصرنا ومزايداته ، وما يراه من سطوة أصحاب (البورصة) وشركات الصلب والسلاح ، وقدرة هؤلاء على التأثير في المعارك الانتخابية ، وإدارتها وتوجيهها من بعد .. فيقيس هؤلاء بهؤلاء .. أين تقع الثروة من نفس طلحة بن عُبيد الله ، الذي سماه الرسول صلى الله عليه وسلم (طلحة الخير) وبشره بالجنة ، ووعده بها، ووعْدُه صلى الله عليه وسلم لا يتخلف واختاره عمرُ ليكونَ من أصحاب الشورى.طلحة الذي كان يَفدي بنحره رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، حتى تلقى عشرات الطعنات في جسده ، وهو صامد صابر ، مصابر محتسب ، وكانت نجاته أعجوبة الأعاجيب ، حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول :«من سره أن ينظر إلي شهيد من أهل الجنة يمشي على قدميه فلينظر إلى طلحة ». هذا الجهاد وهذا التاريخ يعجز المؤرخ أن يستوعبه ويتمثله. فيفسر خروجَه بأنه خائف على ثروته ، ولو فهم (الحادثة) في مُناخها وأدركها في ملابساتها ، لعرف أن مثل طلحة تهون عليه الدنيا كلها في سبيل هذا الدين.(إنما كان خروجه لأمر آخر لسنا بصدد شرحه الآن).

(٤):الاهتمام بالمصادر الأخرى :

بمعنى عدم الاقتصار على الكتب الموصوفة بأنها كتب التاريخ فقط، وذلك مثل كتب السنة الصحيحة، والفتاوى ، والأقضية ونحوها. فهذه المصادر بالإضافة إلى ما تقدمه من مادة تاريخية ، تعطي إشارات وملامحَ، تعين على التفسير والتحليل والتعليل ، فحينما نقرأ مثلاً في كتب السنة :«عن طارق بن شهاب ؛ أن خالدَ بنَ الوليد كان بينه وبين سعد بن أبن أبي وقاص كلام ، فذكر خالدٌ عند سعد ، فقال : مَهْ ، فإن ما بيننا لم يبلغ ديننا»(رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد:/٢٢٣)

ما كان بين خالد وسعد ، لم يسمح لسعد ، بأن يُذكر خالد أمامه

بسوء ، وقال لمن يجامله بذلك : مه (كف)إن ما بيننا لم يبلغ ديننا. نعم. الدين عنده أولاً، ليكن ما بينه وبين أخيه من نزاع أو خصام ، ولكنه لن يخالف دينه، ويسكت عمن يغتاب خصَمه ، لن يقبل هذا . إذا عرفنا ذلك ، أدركنا أن هذا النمط من الرجال- من باب أولى- لا يمكن أن يحمل السلاحَ على أخيه أو خليفته ، بَلْه على أُمّته لأمر دنيوي أو شخصي.

وحينما تقرأ في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، عن موقف من المواقف الحادّة بينها وبين زوجات الرسول الأخريات ، وكانت تتزعمهن زينبُ بنتُ جحش -رضي الله عنهن جميعاً- حينما تحكي أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها كيف (وقعت فيها زينب) ووقعت هي في زينب، ثم تعقب على ذلك قائلة«ولم أرأمرأةً قط خيراً في الدين من زينب واتقى لله، وأصدقَ حديثاً، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقةً وأشد بذلاً لنفسها في العمل الذي تتصدق به ، وتتقرب به إلى الله تعالى .. » حينما تذكر عائشة رضي الله عنها ذلك عن (منافستها) وتعقب به على ذكر موقف من أشد ما كان من خصومة بينهما ، حينما تقدم عائشة كل هذا الثناء لزينب ، في هذا الموقف، فمعنى هذا أننا أمام نفس فُطرت على الإنصاف والعدل ، لم تُنسها الخصومة فضائل خصمها، وراحت تعترف لها بكل فضائلها.

حينما نقف أمام هذا النمط الفذ، الذي يدرك الحقَّ والإنصافَ في أقصى مواقف الخصومة ، عندئذ نرفض ذلك التفسير السخيف لخروج عائشة يوم موقعة الجمل ، بأنه كان حقداً دفيناً على عَليّ منذ (قصة الإفك) فإن من تخشى على دينها من عدم ذكر فضائل وحسنات خصيمتها ، لا يمكن أن تقود جيشاً ، تحطم به أمةً ، وتهدم به ديناً ، تعلم أكثر من غيرها ، حقيقته ومنزلته ، ولقد كان خروجها لباعث نبيل، فقد رجت أن تتمكن من الإصلاح بين الطائفتين (راجع في هذه النقطة : العواصم من القواصم).

(٥) الحذر التام من كتب الأدب والأدباء :

ومما يؤسف له أن كتب الأدب ودراسته ، تُقدم زاداً شهياً للمؤرخين وهو في جملته زاد سموم. والذي أوقع المؤرخين في ذلك ما شاع من قواعد النقد الأدبي ، وصار من البدهيات المسلمة ، ونعني به قولهم: (الأدب مرآة العصر الذي نشأ فيه) يعكس صورة صادقةلواقع العصر وما يجري فيه.

ولكن هذا القول يجب أن يُنظر إليه بحذر شديد .. فكثيراً ما تعكس هذه المرأة زاويةً ضيقة جداً لا تمثل شيئاً يذكر من الواقع ، بل كثيراً جداً ما تزيف هذه المرآة صورةَ الواقع ، حيث ينظر الأديب شاعراً كان أو ناثراً إلى واقعه من خلال ذاته، فيتلون الواقع بنظرته وتتبدل صورته.

ويشهد لما أقول أقطابُ النقد الأدبي والأدب المقارن ، فقد قرروا بناء على ما أجْرَوْه من دراسات في مختلف الآداب ، أن رؤية الأديب ، وما يصوره في أدبه بينها وبين الواقع بون شاسع(أحياناً)

يتحدث عملاق النقد الأدبي المرحوم الدكتور/محمد غنيمي هلال عن(مدام دي ستال) وتصويرها للحياة في ألمانيا فيقول:

لقد هاجرت إلى ألمانيا ضائقةً ذرعاً بما تعانيه فرنسا من طغيان نابليون ، ومن حكمه في حرية الأفكار فيها. فكانت تنشد في هجرتها بلداً تتمتع فيه بنوع من المثالية التي تحلم بها، أضفتها على كل ما رأت وما شرحت ، وكان كتابُها عن ألمانيا بمثابة صلوات طريد ، ينشد ملاذاً في عالم مثالي ، وقد أثرت بإدراكها هذا في جيل من الكتاب والرحالة الفرنسيين ، فظلت ألمانيا في إنتاجهم بلدَ الحرية الفنية في المسرحيات والشعر ، كما ظلت بلدَ الحياة المرحة الطليقة، التي يتمتع أهلها بملذات الحياة في كنف حرية رحبة الآفاق. وبالرغم من أن الصورة التي رسمتها (مدام دي سنال) لألمانيا كانت غير صادقة ومبالغاً فيها .. ظلت ذاتَ أثر بالغ في معاصريها ومن جاء بعدهم من أدباء النصف الأول من القرن

التاسع عشر(انظر كتاب النقد الأدبي ص ٤٠٢) هكذا(صورت الواقع صورةً غير صادقة، واستمر هذا التأثير نحو نصف قرن). ومع وضوح هذه الحقيقة إلا أن المؤرخين ما زالوا يقعون في وهم تصوير الأدب للواقع وللأسف ما زال كتابُ(الأغاني) مصدراً هاماً ونبعاً فياضاً للمؤرخين . وما زال شعر ابن أبي ربيعة ومجونه هو أصدق صورة للمجتمع في نظر الكثير منهم ، وما زالت النوادر والفكاهات (النواسية) هي صورة عصر هارون الرشيد الصادقة.مع أن نظرة سطحية إلى الحياة من حولهم تريهم مقدار الخطأ في هذا المنهج (فليست قصص الفراش في أدب إحسان عبد القدوس وأضرابه ، وليست أفلام المجون ، ومسرحيات الخلاعة ، وأغاني الهوى وتباريح الغرام ، ليس هذا الطوفان من الأعمال الأدبية والفنية صورة للمجتمع المصري لا من بعيدٍ ولا من قريب ، وإن زعم هؤلاء أن هذه النماذج التي يصورونها في قصصهم ومسرحهم موجودة فعلاً، فمتى كانت النماذج المريضة الشوهاء ، هي صورة المجتمع وعنوانه).

(٦) مراعاة المستوى الذي يكتب التاريخ له :

أعني أنه لابد من التفريق بين مايقدم للدارسين المبتدئين، والدارسين الناضجين ، والدارسين المتخصصين، والدارسين الباحثين ، ولسنا ندعو إلى إخفاء الحقائق .. حاشا لله ، فليس عندنا والحمد لله مانخشاه ..وإنما الذي نريده هو أن نلتزم أوليات.وبدهيات التربية. فنقدم لكل مستوى ما يقدر على استيعابه. فمن غير المعقول أن أقدم لتلاميذ الابتدائي قَتْل خالد لمالك بن نويرة وزواجه من أمرأته ، وعزل عمر لخالد، ثم الفتنة وموقعه الجمل وصفين ، فمن المقطوع به أن عقول من في سنهم لن تستطيع استيعاب هذه الأحداث ، ولن تدرك دوافعها وبواعثها ، ولن تميز بين صحيح أخبارها وسقيمها ، ومن هنا لن تستطيع أن تضَعها في نصابها الصحيح .. اللهم إلا إذا أردنا تشويه التاريخ.

وأخيراً نقول :

إن هذا الميدان في حاجة إلى المزيد من الأفكار والآراء ، والجهود ، وإننا إذا فعلنا ذلك في مطلع القرن الخامس عشر، أي إذا استطعنا أن ننظر في تاريخنا، أو على الأقل نتفق على المنهج الذي ننظر في ضوئه وبمقتضاه ، وإذا قُدر لنا أن نعقد مؤتمراً ، أو حلقة دراسية حول هذا الموضوع ، لنضع الأسس والقواعد ، ونرسم الخطوط الرئيسة ، التي تعاد كتابة التاريخ الإسلامي على منوالها.

إننا إذا فعلنا ذلك ، ونحن نرنو إلى مطلع القرن الخامس عشر ، نكون قد أحسنا استقباله ، وعرفنا كيف نحتفل به؛ لأننا نكون قد أجرينا، أو على الأقل شرعنا في المراجعة اللازمة لجانب من أخطر جوانب حياتنا ، أو لموقف من أخطر مواقفنا. وبالمثل هناك أكثر من مجال في حاجة إلى مراجعة وإعادة تقييم .

أعان الله أمتنا على أمرها ، وسدد خطاها ، ووقاها شر نفسها ، وشر عدوها..

حوار

بحثٌ على بحث

عرض الأخ الباحث الدكتورمحمد رضا محرم في بحثه (أفكار الآخرين)(*)لقضية من قضايانا المعاصرة -وما أكثرها- التي تحتاج إلى دراسة وتقويم ، وهي طريقة التعامل مع (أفكار) الآخرين: ماذا نأخذ منها؟ وماذا ندع ؟ وماذا نسكت عنه؟ وماذا ندفعه ونتصدى له ؟ وماذا نحمل للآخرين من مشاعر؟ وماذا نكن لهم من عواطف ؟؟

وقد قسمَّ بحثه إلى قسمين رئيسين ، تبعاً لتقسيم (الآخرين) إلى فئتين:

القسم الأول : بالنسبة (للآخرين) الذين هم منا.

القسم الثاني : بالنسبة (للآخرين) الذين هم غرباء عنا.

وواضح من كلامه أنه يعني (بالذين هم منا) المسلمين الذين يشاركوننا في العقيدة والدين ، بل والعروبة أيضاً ، ولكنهم يختلفون معنا في الرأي والفكر ، والنظر والتقييم لما يحيط بنا من أوضاع ، وما يعرض لنا من مشكلات .

(*) انظر العدد ٢٩ من المسلم المعاصر(صفر ١٤٠٢هـ / يناير ١٩٨٢م)

أما (الذين هم غرباء عنا) ، فقد قال : «وهم أولئك الذين ينتسبون إلى ثقافات ، أو حضارات مغايرة لثقافتنا وحضارتنا ، ولو كانوا من بني وطننا».

وقد انتهى الباحث في القسمين إلى نتائج ، ما أظنها تُسلَّم له ، بل تحتاج إلى مراجعة ، وتحتمل المناقشة.

كذلك عرض في أثناء البحث إلى قضايا ظنها مسلمات وبديهيات ، وإلى أخبار اعتبرها حقائقَ وثوابت ، وظن بها الصدقَ ، وأخذها مأخذ اليقين، وبعض ذلك بل كثيرٌ من ذلك ، لا يثبت عند النقد والتمحيص.

عرفانٌ وتقدير :

وبادىء ذي بدء نعرف للأخ الباحث حقَّه ، فنذكر له جهدَه ، واقتدارَه على امتلاك ناصية البحث ، والإحاطة بأطرافه وحواشيه ، ونشكر له توقُّد عاطفته وجيشان انفعاله ، وإحساسَه بمعاناة أمتنا، ومشكلاتها، فهو حقاً يكتب من قلبه - يشعر بذلك كلُّ من يملك قدراً من التذوق للكلام- ولا يمارس الكتابة حرفة ووظيفة، كما يفعل الكثيرون.

ونعترف أيضاً أن هناك نقاط التقاء لا بأس بها بيننا وبينه ، نوافقه على ما جاء فيها، ونؤيده ، فيما قاله بشأنها.

ونعتذر مسبقاً عن عدم إيفاء هذه النقاط حقها ، حتى لا يطول الكلام، ويكفي أن نعرض بالتوضيح والتدليل للمآخذ والهفوات ، ليسلم له مابقي بعد ذلك، مما قد نشير إليه مجرد إشارة أثناء الكلام ، وما أحسن ما نحفظ من موروثنا الثقافي:«كفى بالمرء نبلاً أن تُعدَّ مثالبه».

إيجاز قبل تفصيل :

ويمكن أن نجمل ملاحظاتنا سواء ما يتعلق منها بالمنهج والشكل ، وما يتعلق بالموضوع فيمايلي:-

- مصادر البحث .
- توثيق الأحداث والأخبار.
- عدم الإحاطة والشمول.
- التجاوز في تفسير أحداث التاريخ.
- وضع النتائج قبل البحث .
- الوقوع في التناقض.
- جموح التعبير.
- إتيان ما نهى عنه.
- النتائج لا تسلم له.

وقد لا يكون من المستحسن ، أو المناسب ، بل من الميسور تناول هذه الجزئيات منفصلة بعضها عن بعض ، فلا علينا إذا أطلقنا الحديث عنها ، في غير تفصيل أو ترتيب ، وإنما نترك السياق يجمع بينها ويفرق حسب الملابسات ، ودون ارتباط بهذه العناوين.

اتجاه صائب ونهج رشيد:

أعنى بهذا الاتجاهِ الصائب ، وذلك النهجِ الرشيد ، ما لجأ إليه الباحثُ من استقراء أحداث التاريخ ، وتتبع جذوره ، والتأمل في حلقاته ودوراته ، ورؤية أثر ذلك الماضي في واقعنا ؛ فهذا لا شك أولُ غائب من شروط نهضتنا، فنحن في حاجة إلى التعرف الاستيعابي على تاريخنا ، وما لم ندرس تاريخنَا دراسةً واعية فسيظل أحد أركان وعينا بحاضرنا ومستقبلنا غائباً ؛ **فالتاريخ ليس علمَ الماضي، ولكنه علم الحاضر ، وعلم المستقبل معاً ، «ونحن للآن حتى يومنا هذا لم نُخضع دورتنا الحضارية -وهي قوة الارتكاز التي ننطلق منها- لِعمليّة التاريخ ولا لفلسفته»(١).**

فحين يتجه الأخ الباحث للتاريخ باحثاً عن جذور قضيةٍ من قضايانا المعاصرة لابد أن نهنئه على ذلك ، ونشكره له ، جاء في مقدمة بحثه :« وحتى نرشد تعاملنا مع ، وموقفنا من ، أفكار الآخرين ، وحتى نُتقنَ كيف نقومها ، وكيف نتعامل معها، وكيف نستفيد منها، **فإننا ولابد**

(١) دكتور رشدي فكار(من محاضرة بعنوان الإنسان العربي بين التأزم والانطلاق).

مضطرون إلى التعرف على هؤلاء، في الموروث التاريخي،وفي الواقع المعيش سواء كانوا منا، أو كانوا عنا غرباء».

وقال مؤكداً لقيمة البحث عن جذور قضايانا ، والوعي بتاريخها: « .. ومنذ انبثاق الدعوة المحمدية الربانية زماناً ، ومن أرض المبعث بمكة مكاناً، نبدأ مسيرتَنا في الزمان والمكان ، علّنا نعي دروسَ التاريخ ، ونستوعب حتميات السنن الإلهية، ونستفيد من حكمة الممارسات المحمدية ، ونخلع عن أعيننا عمايات الوهم والجهل التي ابتلينا بها ، وطال منها البلاء !!» ص٨ ع٢ س١٣.

نعم ، وأهلاً ومرحباً، بالتعرف على دورس التاريخ ، وحتميات السنن الإلهية، وحبذا لو اتبع كل الباحثين هذا المنهجَ في دراسة قضايانا.

ولكن :

وما أخطر (لكن) هذه ، حينما اتجه الأخ الباحث إلى تاريخنا يستقرئه ويستنطقه ، ويعتبر به ويتعظ ، إذا به -غفر الله لنا وله- يُغيِّر الهدفَ والغرضَ ، فيأخذ في محاكمة تاريخنا كله ، ويشبعه جَلْداً وركْلاً وصَفْعاً، وتهويناً وتحقيراً ، ثم يشنقه ويصلبه ، وهذا أقل وصف لما فعله الكاتب الباحث بتاريخ أمتنا ومجدها وعزها.

إدانة مسبقة للتاريخ :

بل إنه قبل أن يبدأ بحثَه كان قد سجل النتيجة ، ويقيني أنها أفلتت منه من غير أن ينتبه لها ، اسمع إلى قوله بعد سطرين من مقدمة بحثه:«أما الذين هم منا دماً ، ودِيناً ، وتاريخاً ، فلدينا من الموانع الموروثة ما يحول دوننا والتفاهم معهم ،أو الفهم عنهم.أو الإنصاف في تقويمهم قولاً وعملاً» كذا. ولست أدري فيم العناء والبحث؟ إذا كان قد حكم أن موروثات التاريخ تحول دون الفهم والتفاهم مع الآخرين وإنصافهم.

هذا رأيه في أمته وتاريخها مسبقاً ، وقد حاول أن يُدخله علينا من باب حديث متحضر: باب البحث العلمي، ولكن سبقَه قلمُه ، ورحم الله أمير المؤمنين الفقيه الأديب (أبوجعفرالمنصور) حين قال في إحدى خطبه:«إنه ما أسر أحدٌ معصية قط إلا ظهرت في آثار يده وفلتات لسانه».

أيُّ تاريخٍ هذا ؟

في محاولة الأخ الباحث تحليل التاريخ ، واستقرائه ، للوصول إلى دروسه وحتمياته -كما وعد بذلك- وقع بعيداً عن التاريخ !! ولست أدري كيف وقع هكذا بعيداً بعيداً ؟

يقيني أن ما أوقعه في ذلك ، إنما هو ذلك التاريخ المشوّه ، الذي درسناه في التعليم العام ، ودرسه المختصون في التعليم الجامعي ، وقرأناه قصصاً وأعمالاً أدبية متنوعة ، فاستقرت في ذهننا صورة مستبشعة لأمتنا منذ فجرها ، منذ يوم السقيفة، ولذا بدأ كاتبنا بحثَه في التاريخ ، أو عن التاريخ ، بعد أن كان قد حكم عليه ، وانتهى من حكمه. كما أشرنا آنفاً .

وأخرى !!!

والثمرة التالية لهذا تعجلُه **بالإدانة لبني مروان** استطراداً ، قبل أن يأتي دور الحديث عنهم ، فعلى حين يتحدث عن الفترة التالية لفتح مكة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، تراه يجمح به القلم ، كاشفاً عما يمور في نفسه بدءاً ، فيقول وهو يتحدث عن الطوائف التي أسلمت بعد الفتح:«وأول هؤلاء طائفة الطلقاء من أهل مكة ، **والتي خرج من جوفها بنو مروانَ ، الذين أفسدوا على ذي النورين عثمانَ بنِ عفان حكمَه ، ثم تاجروا بقميصه، ثم حاربوا عليَّ بنَ أبي طالب كرّم الله وجهه ، حتى أقاموا دولة الطلقاء من بني أمية»** ص١٥ ع١ س١٠.

هكذا في عجلة من أمره يريد أن يقذف بما في داخله ويرتاح ، ولا ينتظر حتى يأتي مجال الحديث عن بني مروان وأوانه.

أوليات المنهج وأبجدياته :

حين يكون البحث عن التاريخ ، لمن يريد أن يقرأ التاريخ ، أو يتعلمَ التاريخ، فمن البديهي أن يتجه إلى كتب التاريخ ومصادره ، لا إلى كتب أخرى غيرِ كتب التاريخ .

أما حينما يكون البحث عن التاريخ لتحليله واستنتاج دروسه، فالواجبُ حينئذ أن يتجه الباحث لا إلى كتب التاريخ فحسب ، بل إلى أصدقها وأوثقها ، ولابُدَّ له حينئذٍ من الموازنة ، والمقارنة والتصحيح والترجيح ، حتى لا يحلل من الوقائع إلا أثبتها ، ومن الأحداث إلا أصدقَها، ومن الأخبار إلا أوثقَها.

فإذا أدار باحثُنا ظهره لكل كتب التاريخ والمؤرخين ، وراح يبحث عن تاريخ الإسلام والمسلمين ، في كتابات طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد أمين ، فأعتقد أنه لا يريد البحث عن التاريخ ، ولا في التاريخ ، وإنما يريد أن يثبت فكرة مسبقة لديه ، ورأياً اعتنقه ، وهذه أخطر آفات الباحثين.

وليعذرني الأخ الدكتور، فأنا لا يمكن أن أصدق أن باحثاً يريد البحث في الأدب والنقد مثلاً ، فيتجه إلى كتب الطبري ، وابن الأثير ، وابن كثير ، وابن خياط ، وغيرهم ويترك كتبَ ابن سلام وعبد القاهر ، وقدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري ، وابن المعتز إنه إن فعل ذلك لا نعده مخطئاً، فمثل هذا لا يحدث خطأ، وأترك لكم وصفَه والحكم عليه.

نوعٌ من التفكير فات أوانه :

إي وربيّ . كنا نظن أن هذا اللون من التفكير الذي يقوم على التقاط نثار من الأحداث والوقائع المختلفة ، وعلى ليّ أعناق النصوص ليّاً ،

وتفسيرها من داخل الباحث ، وبمقاييس زمانه ومعايير عصره هو ، ومَن حوله هو ، كنا نظن أن هذا أمر قد انتهى ، أو على الأقل كنا نظن أن هذه الوقائع والأحداث المكذوبة ، قد انكشف أمرها وذاع سرُّها ، بعد ما نشر من دراسات وتحقيقات ، وثار حولها من مناقشات ومساجلات ، وكنا نظن أن المُناخ الثقافي العام «للمسلم المعاصر» يجعله قادراً على تذوق مثل هذه الأخبار وإدراك خبيئتها بحسه ، وإن لم يفرُغ لها بدرسه وبحثه ، وأنها حينما تعرض له سيقذفها إلى حيث يليق بها ، وسيجد مدَّ يده ما يدحضها ، ويقدم له البديلَ الصحيح لو أراد.

الخلاف حول شخص القائد :

تحت هذا العنوان الطريف أراد الأخ الباحث أن يؤكد أن الصراع السياسيَّ على السلطة بدأ في المجتمع الإسلامي منذ يوم توفى(الزعيم العظيم) يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث صار «التعامل مع الحاكم -سلباً أو إيجاباً- يحكمه قانون التكافؤ بين الحاكم وبين المحكوم ، وهو القانون الذي كان يتوقف عن النفاذ في أحيان كثيرة، حين التعامل مع محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) باعتباره رسولاً» ص١٧ع٢ س٨.

وقد تغير الخلاف من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم «وانتقل إلى مستوى آخر ، فلم يعد يدور حول جزئيات ، أو عوارضَ يأذن (الزعيم)(٢) صراحة أو ضمناً بإبداء الرأي فيها، بل تطور(الخلاف)وتضخم ليدور حول الكليات الاجتماعية والسياسية بما فيها القبول أو الرفض،أو المراجعة الجذرية لقيادة القائد الجديد» ص١٧ع ٢س٢٢.

---

(٢) يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم.

دليله على ذلك :

استشهد على ذلك بمايلي :-

أولاً : موقف سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج .

فقال:« امتنع سعد ابن عُبادة رضي الله عنه عن مبايعة أبي بكر ، وطالب عمرُ أبابكر رضي الله عنهما أن يأخذ بيعتَه عَنوة ، وألا يدعَه حتى يبايع ، ولكن أبا بكر رضي الله عنه أخذ بنصيحة بَشير بن سعد رضي الله عنه الذي حذر من إغضاب (الأوس) كذا كتبها والصواب (الخزرج)(٣) ، وترك سعداً رضي الله عنه وشأنه ، لم يقهره على إعطاء البيعة ، ولم يعط سعدُ بنُ عبادة البيعة لأبي بكر رضي الله عنه، ولا لعمرَ من بعده حتى مات في الشام ، في خلافة عمر رضي الله عنه ، بل إنه رضي الله عنه كان لا يصليٌ بصلاتهم ، ولا يجمع بجمعتهم ، ولا يُفيض بإفاضتهم حتى مات».

ولست أدري كيف أناقش الأخَ الباحث في قيمة هذا الخبر!! هل نتحاكم إلى السند؟ أم نتحاكم إلى العقل ؟ لقد سمعتُ أحد (مشاهير) مؤرخي عصرنا الذي يزعم ويُزعم له أنه الحجة في التاريخ الإسلامي ، سمعتُه يقول: «كم جنى الإسناد على هذه الأمة !!» وقذف بها عوراء بلقاء هكذا أمام جمع من العلماء ، في أحد المؤتمرات الإسلامية ، فأخشى إن تحاكمنا إلى الإسناد أن يقول كاتبنا :دعنا من الإسناد ، ومع ذلك نقول له في إيجاز : إن كتاب الإمامة والسياسة الذي عزوتَ إليه هذا النص كتابٌ لقيط ، منسوب إلى غير أبيه ، وحمل ابنُ قتيبة وزرَه ظلماً وزوراً، والقضية معروفة منذ القدم ، وعندما نشر العلامة محب الدين الخطيب كتابَ (الميسر والقداح) لابن قتيبة منذ أكثر من خمسين عاماً، ذكر في مقدمته مآخذ العلماء على كتاب الإمامة والسياسة ، وبراهينَهم على أنه ليس لابن قتيبة ،حيث ذُكرت فيه أمورٌ وقعت بعد تاريخ وفاة ابن قتيبة ، كما أنه يروي كثيراً عن اثنين من كبار علماء مصر ، وابنُ قتيبة لم يدخل مصر ، ولا أخذ عن هذين العالمين(انظر العواصم

---

(٣) انظر إمتاع الأسماع ، وحدائق الأنوار؛ موضوع العقبة الكبري ، ولعل الذي أوقعه في الخطأ أن بشير بن سعد خزرجي.

ص ٢٤٨ هـ ٢).

فمثل هذا الكتاب الذي يتوارى عنه صاحبه ويستحي منه كاتبه ، ولا نعرف لأخباره سنداً ، كيف يكون مصدراً لنا عند استقراء التاريخ ، واستخراج دروسه وعبره؟؟ وهو(كتاب مشحون بالجهل والغباوة ، والركة والكذب والتزوير كما وصفه بذلك العلامة محب الدين الخطيب رحمه الله)(العواصم ص ٢٤٨).

نقد المتن :

وإذا تركنا سند هذا الخبر ، وما يمكن أن يوجه إليه من طعن يؤكد كذبَه واختلاقه ، واتجهنا إلى نقد المتن ، أو النقد العقلي ، كما يحلو للبعض أن يسمّيه، فإننا نقول :

إن من أوليات النظر في متن الأخبار أن تعرض على العقل ، بشرط الإحاطة بظروف البيئة والمناخ الذي وقع فيه الحدث ، وطبيعة الأحوال والملابسات إحاطة تامة ، حتى يكون الناظر في متن الخبر كأنه يعايش الحدث في وقت وقوعه ، ويتبع هذا ، بل قبل هذا أن يكون على علمٍ بأخبار الرجال الذين وقع منهم الحدث المروي ، وأن يكون لديه من أخبارهم ، مايكفي لمعرفة صورتهم النفسية والخلقية ، معرفة كاملة صحيحة ، فإن ذلك مفتاحُ النظر في المتن ونقده.

فإذا قيل لنا: «إن سعدَ بنَ عُبادة امتنع عن مبايعة أبي بكر، وعن مبايعة عمر من بعده ، وخرج إلى الشام ، وكان لا يصلي بصلاتهم ، ولايجمع بجمعتهم ، ولا يُفيض بإفاضتهم ، إذا قيل لنا ذلك ، لابد أن نسأل الأسئلة التالية:

١ - من سعد بن عُبادة؟ وماذا عن خلقه ، ومواقفه ، وتاريخه حتى هذا الموقف؟
٢ - لماذا وقف هذا الموقف؟
٣ - كيف كانت الظروف والأحوال عندما وقف هذا الموقف ؟

فعند السؤال الأول نجد الإجابة: سعد بنُ عُبادة ، سيد قومه الخزرج ، وأحد النقباء ليلة العقبة وقد بايع ليلتها(٤) على حرب الأحمر والأسود من الناس. وأخذوا العهد على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، وعندما سألوا الرسول : ما لنا بذلك ؟ قال: «الجنة» وشهد المشاهدَ كلَّها ، **وأحد رجلين استعشارهما النبي صلى الله عليه وسلم في إعطاء ثلث ثمار المدينة لعيينة بن حصن الفزاري يوم الخندق ، فقالا معتزين بالإسلام ورسوله:(.. أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف)(٥)** وهو صاحب الراية يوم فتح مكة ، وكان يلقب بالكامل، ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود:« اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة».

ثم لماذا وقف سعد بن عبادة هذا الموقف ؟

ما عائد هذا المنصب؟ وما مردوده ؟ أمن أجل مالٍ يعود عليه؟ وهو يعلم ظاهرَ الأمر وباطنَه ؟!! وأن من كان قبله صلى الله عليه وسلم كان يمضي عليه الشهر والشهران ، ولا طعام له ولأهله إلا التمر والماء !!

أمن أجل المال؟ وهو يرى الدولة الإسلامية الناشئة تقتضي من أهلها أن يبذلوا فضولَ أموالهم ، إن لإخوانهم الذين لا مال عندهم ، وإن للصالح العام وإقامة الدولة أمن أجل مال!! ، وهو واحدٌ من الذين قال القرآن الكريم فيهم:(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(٦) وقد نزلت هذه الآية عندما قسم النبي صلى الله عليه وسلم فَيْءَ بني النضير ، وأعطى المهاجرين، ولم يعط الأنصار، فطابت نفسُ الأنصار ، ورضوا، ووقوا شحَّ أنفسهم.

---

(٤) انظر ابن هشام.

(٥) انظر حدائق الأنوار : ٢/٥٨٨

(٦) سورة الحشر : ٩

أمِن أجل مالٍ؟ وهم الذين تربّوا في أحضان مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلموا مقدارَ هذه الدنيا وقيمتها.

أم من أجل جاهٍ وسلطان ووجاهة في الدنيا؟ وهم الذين رأوا كيف تحولت القيادة في الدولة الإسلامية إلى تبعات ثقال ، وكيف أخرجها محمد صلى الله عليه وسلم من صورتها القبلية ، حيث كانت ترتبط بالعصبية والنسب ، وبالغنى والجاه ، ويتوارثونها كابراً عن كابر ، فصار ولاة محمد صلى الله عليه وسلم وعماله ، لا يقاسون بأي مقياس من هذه المقاييس ، وكان قمة هذا التغيير للمفاهيم القبلية الجاهلية هو تولية أسامة بن زيد قيادة الجيش ، وهو الفتى اليافع في نحو سبعةَ عشرَ عاماً من عمره ، وليس من أصحاب النسب والحسب ، على حين كان في الجيش من كان من شيوخ الصحابة ، وذوي المنزلة في الإسلام وقبل الإسلام.

فأي جاهٍ كان يحرص عليه سعدُ بنُ عُبادة ، ويخاصم الخليفتين من أجله، ويخرج إلى الشام غضباً أن حرماه منه.

ثم إذا جئنا للسؤال الثالث : كيف كانت الظروف والأحوال عندما وقف هذا الموقفَ؟ نستطيع أن نجيب قائلين :أفي مثل هذه الحال ؟ يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب المسلمين خاشعة هالعة ، والصدمة قد أخذت بالعقول ، وذهبت بالألباب؟ أفي مثل هذه الحال تتطلع النفوس إلى الدنيا والحياة ، وإلى الرئاسة والسلطان؟

ثم إن هذا الخبرَ بهذه الصورة يحمل في ثناياه دلائل كذبه واختلاقه ، فما معنى لا يُفيض بإفاضتهم؟ إن الإفاضة هنا المراد بها الحج، فهل لأمير الحج الذي يحج بالناس قيادةَ الحجيج في أثناء المناسك ، بحيث لا يطوفون إلا وراءه، ولا يخرجون إلى الموقف إلا وراءه ، ولا يفيضون من عرفة إلا وراءه !! هل هذه صورة الحج المفروض المعروفة في كتب الفقه؟

يعني هل الحج يؤدى في جماعة وله أمير قائد كالإمام في الصلاة؟ أعتقد أنه لم يقل بهذا أحد ، وإنما هو جموح القلم الذي يكشف عن الهوى ، لدى صاحب هذا الخبر ، فأتبع الصلاة والجمعة الحجَّ ، حتى يكملَ صورة

الخروج عن الطاعة لسعد بن عبادة.

ثم إذا كان في الشام ، فكيف يصلي بصلاتهم ، ويجمع بجمعتهم؟؟!
أم تراه يريد أنه لا يصلي وراء أمرائهم على الشام؟

فكيف كان يصلي إذاً؟ فإذا قبلنا(مع ما في ذلك من منتهى الشطط) أنه ظل يقاطع المساجدَ والجماعةَ في الصلوات الخمس (مع استحالة هذا من مثله) فكيف نقبل أنه قاطع الجمعةَ ، وراء أمرائهم ، فكيف يصليها؟ والجمعة لا تصح إلا في جماعة، كما هو معلوم من الدين بالضرورة ، لا يحتاج إلى إشارة ، أو تنبيه ، هل يمكن لمثل سعد بن عبادة ، أن يترك الجمعة، وهو الذي يعلم الوعيد الشديد على تركها. إن الجمعة فرض بنص القرآن الكريم:« يَاأَيُّهَا الَّذِنَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ من يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ »(٧)

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد والنسائي:«لينتهين أقوامٌ عن وَدْعهم الجُمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونُن من الغافلين» وفي حديث رواه الخمسة وابنُ حبان والحاكم والبزار ، وصححه ابنُ السكن:«من ترك ثلاث جمع طبع الله على قلبه».

أيتصور من سعد بن عبادة أن يترك الجمعة؟ إن من يقول هذا ، لا يدرك خطورةَ ما ينسبه إلى سعد ، لأنه لا يدرك الحكمَ الشرعيَّ لما ينسبه إليه، ويدّعيه عليه ، ولا يعرف عن حياة(نقيب العقبة) الذي بايع على الجهاد، ونصرَ وآوى ، وحمل اللواء بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يبغي إلا الشهادة في سبيل الله، بائعاً هذه الدنيا بكل أعراضها.

إن من يقول هذا عن سعد بن عبادة ، ماعرف عنه إلا أنه (سيد الخزرج) وكل ما أخذه من معطيات النص ، هو كلمة (سيد الخزرج) فترجمها إلى(زعيم الخزرج) وعلى الفور قفز إلى ذهنه صورةُ زعماء الأحزاب في عصره ، تصور(ديجول) حينما أسقط في الانتخابات ، فاعتزل السياسة

---

(٧) سورة الجمعة : ٩

والمجحر بعيداً عن الأضواء ، إلا أنه رأى أن ديجولَ زعيمٌ عصري ديمقراطي ، فلم يعالن بخصومة ، أما سعد ، فقريب عهد بجاهلية ، ومن هنا أعلن العصيان والتمرد، وعالن بالخصومة ، أو ربما قفز إلى ذهنه صورة(إيدن) رئيس وزراء انجلترا في سنة ١٩٥٦م ، حين حيل بينه وبين كرسي الرئاسة ، وكيف أوى منعزلا في جزيرة (جمايكا) في وسط البحر.

ولكن كان ينبغي عليهم وقد جعلوه زعيماً حزبياً ، أن يسألوا كيف كان موقف أنصاره؟ وأتباعه؟ ولماذا لم يغضبوا له، ويشوروا من أجله؟ ولماذا لم يستنفرهم؟ لم يحفظ لنا التاريخ اسمَ واحد من الخزرج امتنع عن البيعة ، وهَبْ أنهم غلبتهم تقواهم ، فجعلوا غضبهم لله ، ورضاهم في الله، ألم يكن ذلك ليعطف سعد بن عبادة إلى طريق الهدى الذي عاش له ، وجاهد في سبيله؟! وهل من المعقول (بالعقل المتحضر) أن يتخلف عن سعد كلُّ آله وعصبته، فلا تعي ذاكرةُ التاريخ اسمَ واحد منهم؟ مع توفّر الدواعي على نقله، ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه كان في أمسّ الحاجة إلى من يقف معه، حيث ارتجت الجزيرة كلُّها وأرجفت ، ولم يبق مع أبي بكر إلا المدينة ومكة وحدهما تقريباً، فلو خرج عليه خمسةُ نفر من الخزرج انتصاراً لسيدهم ، لشاع ذلك وذاع !!

ثم إن بقية الخبر تنطق بالخرافة ، حيث يقول:«وظل بالشام حتى قتلته الجن ، ولم يعلم الناس بموته حتى سمعوا وهم في المدينة صارخاً يقول :(نحن قتلنا سعدَ بنَ عبادة) سمعوا صوته ، ولم يرَوا شخصه».ثم لماذا قتلته الجن؟ هل انتقاماً ومجاملة لأبي بكر؟ أم ماذا؟

والأخ الباحث لم يذكر هذا الجزء الخرافي من الخبر ، لأنه رجل عصري لا يقبل الخرافة ، ولكن كان ينبغي أن يلفته هذا إلى عقلية رواته ومختلقيه كله ، فيطرحه وراءه ظهرياً.

وربما بدا أن نقد خبر كهذا لا يستحق كل هذا الجهد ، وهذا العناء ، وهو على أية حال رواية من بين الروايات المتعدّدة في هذه الجزئية من التاريخ، قد لا نصل في تكذيبها إلى درجة القطع ، كذلك قد لا نصل في

تصديقها إلى درجة اليقين.

والجواب أن هذا الكلام قد يُحتمل حين يبقى الخبر ، مجرد تاريخ يُقرأ ، أما حينما يكون هو(الحدث) الذي يُعتمد عليه ، لنفسر تاريخَنا على ضوئه، ونفهم نفسيةَ عصرنا في نوره ، ونفسر سلوكَنا في هديه، فعندئذ يختلف الأمر ، ولابد حينئذ من النقد والتمحيص ، مهما اقتضانا ذلك من الجهد والبحث ، وإلا فالحدث المختلق ، سيؤدي إلى تفسير غير صحيح ، والتفسير الخاطىء سيؤدي إلى فلسفة خاطئة ، وبالتالي إلى قرارات خاطئة ، ونكون قد وجهنا أنفسنا إلى الانتكاس والارتكاس بأيدينا ، بسبب تعجلنا في فلسفة أحداث غير حقيقية ، وتحليل أخبار غير صادقة ، أو غير منطقية.

ثم إن الأخ الباحث قد يكون له عذر إذا لم يكن في الحادثة إلا خبرٌ واحد، فليس له عن تصديقه ، والاعتماد عليه مندوحة (مع أن ذلك غير صحيح ، فوحدة الخبر لا تكسبه صحةً في نفسها) ولكن في المسألة من الروايات مايقطع بأن سعدَ بن عبادة بايع في نفس اليوم ، بل إن الذين شقشقوا بالخلاف حول أبي بكر وإمامته كانوا يذكرون امتناع علي كرم الله وجهه ، ولم يذكر أحد منهم امتناع سعد إلا واحداً أو اثنين.

فهذا الخبر جاء على عدة صور:

(أ) منهم من رواه من غير تعرض لمخالفة سعد بن عُبادة وموافقته «..يقول عمر: فقلت لأبي بكر: ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعتُه، وبايعه المهاجرون ، ثم بايعته الأنصار. ثم كانت بيعةُ العامة من الغد». وهذه رواية البخاري(٨) وغيره من كتب السنة التي لم تذكر أيَّ خلاف على بيعة أبي بكر ، لا لأنه لم يقع خلاف ، وإنما كان هناك نقاش وتبادل رأيٍ انتهى بالإجماع على أبي بكر(٩).

(ب) منهم من روى الخبرَ وقال : إن سعدَ بن عُبادة امتنع عن البيعة أولاً ، ثم بايع في اليوم نفسه الذي بايع فيه الناس (روى هذا الطبري)

---

(٨) حدائق الأنوار : ٧٦١/٢ (لابن الديبع الشيباني).

(٩) انظر على سبيل المثال مجمع الزوائد جـ٥ باب الخلفاء الأربعة.

وحكاه عنه ابن خلدون في تاريخه[10]، ومع أن ابنَ خلدون حكى رواية امتناع سعد بن عُبادة ، وخروجه إلى الشام بتفصيل ، إلا أنه يتشكك فيها، وذلك حين يقول:«ولم يخالف في بيعة أبي بكر إلا سعدُ بن عُبادة- إن صحح خلافه- فهو يحكي خبرَ امتناع سعد بن عُبادة، إلا أنه يعلن التشكيك في هذا الخلاف[11]).

وروى أحمد في مسنده أن أبا بكرٍ قال لسعد بن عُبادة: قد علمت ياسعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وأنت قاعد:« قريش ولاة هذا الأمر فبَرُّ الناس تبع لبَرهم، وفاجرُهم تبع لفاجرهم» فقال له سعد: صدقت نحن الوزراء ، وأنتم الأمراء.

(جـ) منهم من روى خبرَ امتناع سعد ، وإصرارَه على الامتناع عن البيعة حتى وفاته، ولم نر أحداً(غير صاحب الإمامة والسياسة) أضاف «أنه كان لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع بجمعتهم ، ولا يُفيض بإفاضتهم »، ولم نر خبرَ محاولة عمر إجباره على البيعة، ونَهْي أبي بكر له عن ذلك ، إلا في هذه الرواية التي اختارها باحثنا(ليستخرج منها عبر التاريخ ودروسَه)

فإذا كان الخبر جاء على عدة روايات بهذه الكيفية ، ولم نتخذ النظر في السند سبيلاً إلى الترجيح، وإنما اتخذنا النظر في (متن الخبر) هو السبيل للاختيار، فأي الصور أقرب لروح العصر؟ وأيها أشبه برجاله؟ وأيها أليق بأهل هذه الفترة؟ إن الذين ينادون بالتجرد من العواطف والاتجاهات ، ويطالبون بالنظر العقلي المجرد، ويدعون للبحث المنهجي الذي لا يرفع أحداً فوق النقد ، هؤلاء العصريون المنهجيون العقلانيون. لو حكّموا عقولهم فعلاً، وفتحوا عيونهم فعلاً ، وتجردوا من الاتجاهات والعواطف فعلا، لوجدوا في عداد المستحيل عقلاً، أن رجلاً مثلَ سعد بن عبادة يحدث منه هذا الذي نسبوه إليه ، من مفارقة الجماعة ، وترك الصلاة مع المسلمين، واعتزال

---

(١٠) تاريخ ابن خلدون : جـ ٢ ق ٢ ص ٦٤

(١١) ممن روى امتناع سعد بن عُبادة، ولحوقه بالشام ، وقتل الجن له ، ابنُ سعد في طبقاته ، وأشار ابن خلدون بعد إيراده هذا الخبر إلى تشككه فيه قائلاً:« وللناس ولوع بحكاية الغرائب والخلاف والنزاع»جـ ٢ ق ٢ ص ٦٤.

جماعتهم ، وترك صلاة الجمعة. كل ذلك لأنه لم ينتخب خليفة!! سبحان الله.

كيف يكون هذا وهو الذي بايع ليلة العقبة على حرب الأحمر والأسود وعلى مصيبة الأموال ، وقتل الأشرف ، بغير ثواب إلا الجنة.

ثانياً : امتناع علي بن أبي طالب عن البيعة:

هذا هو الحدث الآخر الذي ساقه الباحث دليلاً على الخلاف حول شخص القائد ونص عبارته:« وشخصية عامة أخرى، كانت تمثل نواةً لتجمع حزبي هُلامي آخر، كان لأبي بكر رضي الله عنه منها موقف مشابه:

- فقد أبى عليٌّ بن أبي طالب كرم الله وجهه البيعة لأبي بكر.
- وطلب الأمر لنفسه.
- وساندته فاطمةُ رضي الله عنها زوجتُه وبنت عمه(١٢).
- كما ساندَه كثيرون من بني عبدالمطلب »أ.هـ بنص حروفه ص١٨ ع٢، س١٤.

وبعد هذه الدعاوى الأربع العراض ، التي تنوء بالواحدة منها الجبال، والتي وجهها إلى علي كرم الله وجهه، يستمر فيكملها بدعاوى ثلاث أخر ، يوجهها إلى عمر بن الخطاب :

- « يطالب عمر رضي الله عنه بإكراه علي كرم الله وجهه على البيعة».
- «بل ويجمعُ الحطبَ حول بيت علي وبيت زوجته فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- «ويهدد بحرق البيت علي من فيه من شيعة عليٍّ إن لم يخرجوا لبيعة أبي بكر»أ.هـ. بنصه ص٨ ع٢ : **(يُذكر لتحرير المسلم المعاصر أنه علق على هذه الرواية ، بأنه لم يعثر لها على أثر في المراجع التاريخية المعتمدة).**

---

(١٢) (هكذا فاطمة بنت عم علي ، أي أن النبي صلى الله عليه وسلم عمٌّ علي)!!!

ثم يستمر في توجيه الاتهامات وإقامة الدعاوى ، فيقول:

- «ويهمنا أن نسجل الدورَ الذي قام به بنو أمية ، محاولين إذكاءَ الخلاف بين بني هاشم وبين أبي بكر رضي الله عنه». ويذكر قصةَ إغراء أبي سفيان لعلي والعباس وبني عبد مناف عامة ، بالخروج على أبي بكر، قائلاً لهما:«إني أرى عَجاجة لا يطفئها إلا دم » وواصفاً لهما بأنهما الأذلان ؛ إذ قبلا خلافةَ أبي بكر.

- ويؤكد أن ذلك لم يكن رأياً لأبي سفيان يرتئيه في هذا الموقف ، وإنما كان كيداً وتدبيراً، فيقول:«وهذا الدور الكيدي لبني أمية والطلقاء منهم علي وجه التحديد، يجب أن نذكره دائماً» ص١٩ ع١ س٢٠ (هكذا يجب أن نذكره دائماً. ولست أدري لماذا يجب أن نذكره دائماً).

سقوط هذه الدعاوى :

ولعل هذه الدعاوى أسهل في الدفع والإسقاط مما قاله عن سعد بن عبادة، فنحن لا نجد أثراً لهذه الروايات الجامحة في المراجع المعتمدة ، فمن قال : إن عمر جمع الحطب حول بيت علي وفاطمة ، وهمّ بحرق البيت على من فيه من شيعة علي ؟ .. ومن قال : إن علياً دعا لنفسه؟ لم نقرأ هذا في مرجع من المراجع المعتمدة ، ولا كتاب من الكتب الموثقة ، وإذا كانت رواية انفرد بها راوٍ من الرواة ، فكيف نعوّل عليها وحدها ، ونختارها دون سواها من الروايات المتعددة التي تقول إحداها :«إن علياً عندما سمع بجلوس أبي بكر للبيعة في المسجد خرج مسرعاً عليه قميص ، وليس عليه رداء ، ثم بعدما بايع، أرسل لمن يأتيه بردائه ، فارتداه في المسجد ، وجلس حتى شهد تمام البيعة لأبي بكر» (الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٢٠٧/٣ والكامل لابن الأثير٢/ ٢٢٠).

والتي تقول واحدة أخرى منها:«إن علياً لم يحضر السقيفة ، لأنه كان مشغولاً بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو والزبير ، وبعض آل محمد «بأبي هو وأمي وبنفسي وبالناس أجمعين».(١٣)

---

(١٣) انظر حدائق الأنوار لابن الديع:٢/٧٦٢.

والتي تقول أخرى منها: «إن علياً وجَدَ في نفسه ؛ لأنه لم يؤخذ رأيه، ثم بايع، ولم يتأخر». أخرجها الحاكم وصححها ، وموسى بنُ عقبة في مغازيه.

وهذه الروايات كما ترى يمكن أن تكون كلها صحيحة ، فيمكن أن يكون وجد في نفسه ، ثم حضر إلى بيته مَن طيّب خاطرَه ، فخرج مسرعاً إلى البيعة.

أما أنه دعا إلى نفسه ، فتلك فرية أكبر من أنه امتنع، ولم يبايع إلا مكرها أو مضطراً بعد وفاة فاطمة.

وهذا تناقض :

وبدون أن نرهق أنفسنا، ونرهق الأخ الباحث معنا، نحيله على ما ذكره بنفسه في بحثه على لسان علي كرم الله وجهَه ، إذ قال : «أقبل أبو سفيانَ بنُ حرب بن أمية وهو يقول:أين المستضعفان ؟ أين الأذلان على والعباس؟ وأنشد :

ولا يُقيم على ضيمٍ يراد به
إلا الأذلان عَيْرُ الحي والوتد
هذا علي الخسف محبوس برمته
وذا يُشجُّ فلا يَرْثي له أحد

فقال له علي :«إني وجدت أبا بكر لها أهلاً» أ.هـ بنص كلامه ١٩ ع١ . ثم نسأله قائلين :«كيف يعترف عليّ بأهلية أبي بكر للخلافة. ثم يدعو لنفسه؟ أيستقيم هذا في أي فهم ؟

ولكن هكذا في كل عصر ، صناع الأكاذيب يتناقضون!!

ثم كيف يجمع عمر الحطبَ ، ويحيط به بيتَ علي وشيعته؟ فكم كان مقدار هذا الحطب ؟ وهل كان بارتفاع البيت؟ أم بارتفاع نصفه؟ وكيف جمع عمر الحطب؟ ومن أين ؟ وكم استغرق جمعُ الحطب وحمله إلى ما حول بيت

علي؟ ومن عاون عمرَ في ذلك؟ ومن كان معه؟ ولماذا لم يصف الرواة المولعون بالغرائب هذا الحدثَ العجيب؟!

ثم كيف كان موقف عليّ وفاطمة(بنت محمد) ومن معهم ، والحطب ، يُصَفّ ويجمع حول بيتهم؟ هل أدركوا ما يراد بهم؟ أم لم يدركوا؟ وإذا أدركوا هل تشاوروا في مواجهة الموقف ؟ أم أصابتهم الدهشة بالعجز والوجوم، فجلسوا في بلاهة(يريدها الباحث) ينتظرون الموت حرقاً؟

ثم ماموقف عامة المسلمين ، وهم يرون الحطب يجمع حول بيت عليّ وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ثم هل كان عمر فارغاً من مهامّ الإسلام والمسلمين ، وارتجاج الجزيرة وإرجافها بالردة؟ ليجمع الحطب ؟

ثم هل كان حرق البيت يحتاج إلى حطب من حوله؟ أعتقد أن بيوت ذلك الزمان كانت تقوم على مواد أكثرَ قبولاً للاحتراق من الحطب ، مثل القش والخشب والسعف ونحوها.

ثم هل كان عمر على يقين بأن الجماعة الذين في البيت لن يقاوموا ، فذهب وحده؟؟ أم أعد كميناً معه؟ ومن هم ؟ وكم عددهم ؟ هذه أسئلة نضعها أمام العقل المعاصر ، ونقول (للعقلانيين) تعالوا نحاكمكم إلى العقل. فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين !!!

ففي أي (عقل) تجوز هذه الرواية؟ وبأي منطق تسوغ؟ (لا نريد أن نتحاكم إلى علم الجرح والتعديل ، ونقد رجال السند ، ورواة هذا الخبر ، فذلك علم ليس من مستحدثات العصر ومنجزاته ، ولا يروق عند من يدعوننا إلى«العقل»).

ولذا سنعرض رواياة أخرى، وردت في القضية نفسها، ونضعها أمام (العقل) المعاصر ، ونسأل :

- أيها أقرب لعلي كرم الله وجهه؟

- وأيها أليق بطبعه؟
- وأيها أشبه بسابقته والمأثور عنه؟

ثم : لماذا اختار (العقلُ) المعاصر هذه الروايةَ دون باقي الروايات؟

هذه هي الحقائق :

أخرج الدارقطني عن ابن عمر قال : لما برز أبو بكر واستوى على راحلته (أي يريد الخروجَ لقتال المرتدين بنفسه) أخذ علي بزمامها ، وقال : إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : شِمْ (١٤) سيفَك ، ولا تفجعنا بنفسك ، وارجع إلى المدينة فو الله لئن فجعنا بك ، لا يكون للإسلام نظام أبداً» وأخرجه الساجي عن عائشة أيضاً.(انظر كنز العمال: ١٤٣/٣ ، وانظر البداية:٣١٥/٦، وانظر حياة الصحابة:٨٣/٢).

روى البخاري بسنده عن عقبة بن الحارث قال : «رأيت أبا بكر رضي الله عنه. وحمل الحسن ، وهو يقول : بأبي شبيهٌ بالنبي ، ليس شبيهٌ بعلي . وعلي يضحك»(مناقب الصحابة: فتح الباري:٩٤/٧) وقد ذكر ابنُ كثير في البداية والنهاية:٢٨٦/٥. أن ذلك كان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن الثابت الذي لا نعلم قائلاً بخلافه ، أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان أحد أربعة من أبطال الصحابة ، جعلهم أبو بكر على أبواب المدينة ، حينما خلت من المقاتلين بعد تسيير الجيوش لحرب المرتدين ، وهؤلاء الأربعة هم: علي ، وطلحة، والزبير ، وعبد الله ابن مسعود، رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً(راجع على سبيل المثال تاريخ ابن خلدون:٦٥/٢).

كذلك ثبت أن علياً كرم الله وجهه كان موضع استشارة أبي بكر رضي

---

(١٤) أغمد سيفك .

الله عنه. في مهمات الأمور، وعظائمها، وفي تسيير الجيوش خاصة ، أخرج ابن عساكر:١٢٦/١ عن الزهري عن عبد الله بن أبي أوفى الخُزاعي رضي الله عنه ، أنه قال : لما أراد أبو بكر رضي الله عنه غزوَ الروم دعا عليّاً وعمرَ ، وعثمانَ ، وعبدَ الرحمن بنَ عوف ، وسعد بن أبي وقاص، وسعيدَ بن زيد ، وأبا عبيدة بن الجراح ، ووجوه المهاجرين والأنصار، فقال أبو بكر: ما ترى يا أبا الحسن ؟ فقال :أرى إن سرت إليهم بنفسك ، أو بعثت إليهم نُصرت عليهم إن شاء الله .. لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه ، حتى يقوم الدينُ وأهله ظاهرون»(١٥)

إن الباطل كان زهوقا :

أمام هذه الأخبار الثابتة والحقائق تزهق الدعاوى الباطلة ، ولا يبقى لها في ميزان البحث والحق كيان ، فكيف يعقل أن يكون من هُدّد بحرق بيته. وجُمع الحطب حوله مستشاراً ووزيراً؟ وكيف يكون من يدعو إلى نفسه مقاتلاً بين يدي من خرج عليه ، وامتنع عن بيعته؟ وكيف ..؟ وكيف ؟

أسئلة كثيرة لا نجد لها جواباً عند (العقلانيين) الذين يزعمون أنهم يحتكمون إلى(العقل) ويزنون به الأمور.

لا مجال للقول بالتغير :

وأخشى أن يماري أحد هؤلاء قائلا: إن هذا كان بعد فترة ، من خلافة أبي بكر، بعد أن تم الصلح بين علي وأبي بكر، والجواب القاطع ، أن ذلك مستحيل عقلاً لعدة أسباب منها:

- أن مدة خلافة أبي بكر كلّها كانت سنتين وأشهرا، وليست هذه الفترة بالتي تكفي ليتحول العدو المناوىء، الذي يدعو إلى نفسه ، ويشق عصا الطاعة ، ويهدّد بتحريق بيته عليه وعلى شيعته -ليست هذه الفترة بالتي

(١٥) حياة الصحابة ٤٤٨/١.

تكفي ليتحول هذا (العدو) إلى مستشار وقائد ، وصديق وحبيب ، لمن ناوأه وتمرد عليه.

- أن عزم أبي بكر على الخروج لقتال المرتدين والذي ردّه عنه عليّ كان في الأيام الأولى لخلافته.

- أن إقامة عليّ على أبواب المدينة وحمايتها كان كذلك في أول عهد أبي بكر بالخلافة.

ثالثاً : كيد بني أمية للإسلام !!:

هذا هو الدليل الثالث ، أو الحدث الثالث الذي اختاره الباحث ، ليخلص منه بعد تحليله لدروس التاريخ التي نتعلمها عند تعاملنا مع (أفكار الآخرين).

وهو في الواقع ليس حدثاً واحداً ، بل أحداث وآثار كثيرة لهذا الكيد الذي قام به الأمويون ، فمن ذلك :

- « إذكاء الخلاف بين بني هاشم وبين أبي بكر».
- « خضوع عثمان لتطلعات بعض أهله، ورفع بني مروان على رقاب الناس».
- « التوصل إلى السلطة بالدهاء والكذب».
- « اتخاذ قميص عثمان مبرراً مكذوباً لحرب علي».

- إن الخلاف في عهد عثمان قد وصل إلى الكليات والمؤشرات العامة في المجتمع الإسلامي.

- إن رأي عثمان في(طبيعة الخلافة) وأنها قميص ألبسه الله إياه ، هو الذي جعله يتخشن في معاملة كثيرين من خيار الصحابة ، بعد أن كان معروفاً قبل الخلافة بأنه أرفق الناس بالناس ، فضرب بعضَ الصحابة ونفى بعضَهم.

- شمل الخلافُ فيما شمل من الكليات طبيعة مالية الدولة الإسلامية ، فقد رأي فيها عثمان أنها (مال الله) الموكول إليهم للتصرف فيه كيفما شاءوا ، بينما رآه الآخرون أنه مال المسلمين.

- أطلق عثمان يده في بيت المال ، فأعطى الأغنياء ، وبالغ حتى بلغ عطاؤه لزيد بن ثابت مائةَ ألف ، وحلّى بعض أهله من النساء جواهرَ كانت في بيت المال ، وقال:«لنأخذن حاجتنا من هذا المال وإن رغمت أنوف أقوام» ص٢٧ ع٢ س١٣

- ضجر خازن بيت المال من تصرفات عثمان، فعلق مفاتيح بيت المال على منبر الرسول في المسجد ،وجلس في بيته . ص٢٨ ع١ س٣

- «كان إطلاق عثمانَ ليده في الأموال العامة بمثابة الضوء الأخضر لكل عماله في الأمصار، ليمدوا أيديَهم ،حتى إلى أموال الصدقة» ص٢٨ ع١ س١٠

- « أدت السياسةُ المالية لعثمان رضي الله عنه إلى تنمية طبقة من المنتفعين بالإسلام. وكان أغلبهم من الطلقاء» ص٢٨ ع٢ س١٣.

- «وجماعة المنتفعين بالإسلام هي التي حالت بين عليّ وبين الثورة التصحيحية عندما قاتلته وخرجت عليه» ص٢٨ ع٢ س٢١

- « كان معظمُ ولاة عثمان غلماناً تثور حول تدينهم ، وحول أخلاقهم شبهات كثيرة ، ولم يكن لهم شيء من الصلاحيات ينفعهم غيرُ صلاتهم بالخيفة» ص٢٨ ع٢ س٣٠

- خرج على عثمان ثوار الأقاليم.

- «وعارضه شخصياتٌ عامة من كبار الصحابة معارضةً سلمية، إلا أن قدرتهم على المناورة كانت محدودة ، بسبب تمادي عثمانَ في انحرافاته ، سواء في أمور الدين أو أمور الدنيا ، ومعاداته لكل من ينصح له، بل واعتدائه عليه».ص٢٩ ع٢س١٢

- «إن الخلافات والصراعات هذه ليست افتعالات تآمرية، أو انحرافات

أخلاقية، أو تحريضات عميلة ، كما يحاول البعض تصويرَها» ص٣٠ ع١ س٢٧.

- « وإن هذه الأطراف المتصارعة تحولت بعد الصراع بين علي ومعاوية إلى صيغة دينية مع أنها في الأصل سياسية».

عِرضُ الأمة :

هذه هي مجمل التهم التي كالها الباحث لبني أمية ، وخليفتِهم عثمانَ بنِ عفان ذي النورين رضي الله عنه ، وإني لأعجب -ولعلك تعجب معي كيف تسنى له جمعُ هذا الحشد الهائل من التهم في هذه السطور؟ وكيف صاغ أسلوبه بهذه الحدة العجيبة؟ التي جعلت كلَّ كلامه سهاماً قاتلة ، وحراباً مشرعة وكأنه يطلب ثأراً لم تجف دماؤه بعد!!

وكل واحدة من هذه الكبائر تحتاج إلى أن نخصها بالحديث ، ونتتبَعها بالهدم والنقض والتفنيد ، فهي مفتريات وأباطيل ، كاد بها أعداء الإسلام منذ القدم ، لبني أمية ، وحُق لهم ، فبنو أمية هم الذين زلزلوا عرش الطغاة، وثأروا للشعوب المستضعفة من الاستبداد الروماني ، وأذلوا كبرياءَ القياصرة والأباطرة، فأتموا تطهير الشام ومصر منهم ، وغسلوا الشمالَ الإفريقي من رجسهم ، وركبوا وراءهم البحر ، حتى فزَّعوهم ، وقطعوا عليهم سبيل التفكير في أية عودة ، وأحكموا قبضتهم على (رودس) و(صقلية) و(قبرص) و(مالطة) ، فطهروا البحر المتوسط من قرصنتهم، وأعلنوه بحيرةً إسلامية، وتقدموا منذ فجر دولتهم نحو أسوار القسطنطينية يزلزلونها، ثم عبروا المضيق (مضيق جبل طارق) يحملونَ راية الإسلام ؛ حتى ركزوها في جنوب فرنسا ، وهم في الطريق يدكون بالعدل والرحمة والعلم معاقلَ الظلم والجبروت والجهل.

وفي المشرق امتد الجناح الثاني لدولتهم، حتى أظلوا به دولاً ما عرفت قبلهم طعم العدل ، ولا استروحت نسيمَ الرحمة ، ولا رأت نورَ العلم ، وسل بلاد السند والهند، وما وراء النهر وخراسان، وبخارى وسموقند ، وخوارزم-

يأتك الخبر اليقين، ويا ويح قتيبة بن مسلم الباهلي وإخوانه ، إذا اطلعوا علينا اليوم ، فرأوا ما نحن فيه من مهانة وهوان، ماذا سيقولون عنا؟ وماذا سيقولون لنا؟

ويا ويحهم إذا علموا أننا مع عجزنا وهواننا ، أو بسبب عجزنا وهواننا ننكفيء على تاريخنا نمزقه ، وعلى أمجادنا نلطخها بالأوحال ، وعلى أسلافنا وسادتنا ، ننبش قبورهم ، ونسحق جماجمهم ، تعويضاً عن صغارنا وذلتنا!!

يا ويح قتيبة وأضراب قتيبة ، إذا اطلعوا علينا ، فرأونا نتطاول على عهدهم وأيامهم، ونُسقط ما بأنفسنا على عصرهم ورجالهم ، إخالهم سيكونون أكرم منا ، كالعهد بهم، إخالهم سيجردون الجيوش لا للانتقام منا، والثأر لما فعلناه بسيرتهم وأخبارهم ، بل ليغسلوا عنا عارَنا ، ويرفعوا من الوحل رءوسَنا ، وينفضوا الخزي عن جباهنا ، وعندها ستنقشع عن عيوننا غشاوتُها ، وستزول عن قلوبنا عمايتُها.

يا ويحنا !!! إن التاريخ عِرض الأمة ، فلننظر كيف نصنع بعِرضنا؟؟

أي كيد هذا ؟

لقد أبلى الأمويون في سبيل الإسلام منذ أسلموا ، وكان لهم الفضل في كثير من أيامه ووقائعه، قادوا الجيوش ، وقاتلوا ، وناضلوا ، واستماتوا واستقتلوا في الدفاع عن الإسلام ، ونعرض طرفاً من سيرتهم ، لنرى أيَّ كيد هذا الذي كادوه للإسلام؟

- أبو سفيان :

هذا أبو سفيان بنُ حرب ، رأس بني أمية ، يسلم يوم الفتح، ويجاهد في سبيل الله ، فيتقدم مع رسول الله إلى معركة حنين ، جنديا في جنود المسلمين، وهو الذي كانت إليه راية الرؤساء في قريش ، ويصدق في القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الطائف ، ويتصدى مع من تصدى

لأهل الطائف المتحصنين بحصونهم ، ويتعرض لرماتهم ، حتى يفقد إحدى عينيه، ويأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : يارسول الله ها قد فقدت عيني في سبيل الله. فيقول عليه الصلاة والسلام :«إن شئت دعوت الله فردت عليك، وإن شئت ، فالجنة »قال :الجنة.

كل ذلك ولما يمض على إسلامه إلا نحو شهر واحد .

ويولّيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نجران، ويظل والياً عليها حتى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .وقد كلفه الرسول بمهمة أخرى أخطرَ من الحرب، من الناحية النفسية ، ذلك أنه وجهه إلى (مناة) فهدمها. وهي التي كانت إلاهاً يُعبد من أيام.

ثم نلقاه هناك في حروب الشام، يوم اليرموك ، في الميدان ، في حومة الوغى، وهو يومئذ شيخ يدلف إلى الثمانين من عمره ، تحت راية القيادة ، يجالد ويجاهد ، وينادي في المسلمين يحرضهم ويحثهم، وكان يقف على الصفوف وهو يقول : الله الله، إنكم دارة[١٦]العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم ، وأنصارالمشركين. اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ، وروى يعقوب بن سفيان ، وابن سعد بإسناد صحيح ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه، قال : « فُقدت الأصوات يوم اليرموك ، إلا صوتَ رجل ينادي : يانصرَ الله اقترب ، يانصر الله اقترب ، فنظرت فإذا هو أبو سفيان » وانجلت المعركة عن ذلك النصر المؤزر، الذي يمكن أن يسمى (أيضاً) بفتح الفتوح ، وانجلت المعركة كذلك عن شيخ ضرير في نحو الثمانين من عمره ، ذهبت اليرموك بعينه الثانية، فألحقتها بأختها التي ذهبت بها غزوة الطائف (راجع إن شئت ، أسد الغابة:٣/١٢، ٥/٢١٦ ، الإصابة : ٢/١٧٩، الاستيعاب بهامش الأصابة:٤/٨٥).

فانظر أيَّ كيد كاده للإسلام هذا الرجل!!!

---

(١٦) أي حماةٌ قادة.

- هند :

هذه العملاقة الجسور ، ذات التاريخ العميق العريض ، التي أخذت بشاربي أبي سفيان زوجها يوم الفتح ، حين أسلم ، وأعلن الاستسلام ، ونادت قومَها: اقتلوه .. نراها في اليوم التالي تقول لزوجها:«أريد أن أبايع محمداً فقال لها: قد رأيتك أمس تكذبين ، قالت : والله ما رأيت اللهَ عُبد حقَّ عبادته في هذا المسجد قبل الليلة ، والله إنْ باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً»قال : فإنك قد فعلت ما فعلت ، فاذهبي برجلٍ من قومك معك ، فذهبت إلى عمرَ بنِ الخطاب ، فذهب معها ..إلى آخر ما هو معروف عن بيعتها.

وما إن يدخل الإسلام قلبها، حتى نراها تمسك (بالقدوم) تنقض به على صنم لها في بيتها، وهي تقول : تالله إن كنا معك لفي غرور.

ويوم اليرموك ، حيث رأينا زوجها أبا سفيان تحت الراية في قلب الجيش، رأينا(هندَ بنتَ عتبة) خلف الجيش ترتجز محرضة للمسلمين على القتال ، منادية فيهم بالدفاع عن الإسلام ، مخوفة مهددة من تحدثه نفسه بالتراجع ، ومعها النساء المسلمات يمسكن بأعمدة الخيام ، وبالحجارة يتوعدن من تحدثه نفسه بالفرار.

فيالله للإسلام !! أي كيد كادته له هذه المرأة !!

- ويزيد بن أبي سفيان :

ممن أسلم يوم الفتح ، ومع النبي صلى الله عليه وسلم سار إلى حنين ، ثم الطائف ، واختاره أبو بكر الصديق رضي الله عنهما ليقود أحدَ جيوش الشام ، وخرج معه يشيعه ماشياً، وأبلي يزيد في سبيل الإسلام ماشاء الله له أن يبلي ، فكان صاحب لواء الجناح الأيسر يوم اليرموك ، وشارك في وقعة (أجنادين) ، ثم اتجه إلى مدن الساحل الجنوبي ، ففتح (صيدا) و(عرقا) و(جبيل) و(بيروت) وظل يجاهد في سبيل الله ، حتى قضى نحبه في الميدان في طاعون عمواس، رضي الله عنه وأرضاه.

- ومعاوية بن أبي سفيان :

كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفيق أخيه يزيد في فتوحات الشام ، وخليفته في الجيش من بعده ، ولاه عمر بن الخطاب ، ثم جمع له(الشامات) كلها، فظل واليه عليها إلى يوم وفاته ، وأبو البحرية الإسلامية ، وغازي القسطنطينية ، وكان جيشه إليها بقيادة ابنه يزيد ، وكان في الجيش ابنُ عباس، وابنُ عمر ، وابنُ الزبير ، وأبو أيوب الأنصاري، وغيرُهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم(انظر الكامل لابن الأثير: ٢٢٧/٣).

فاعجب معي أي كيد كاده بنو أمية للإسلام !!!

من يكيد لمن ؟

هذا الكيد الأكبر الذي يكيده أعداء الإسلام ،للإسلام ، ولرجال الإسلام، منذ كان للإسلام الصولة والجولة ، قد وجد من يغذوه ، ويُذكي أوارَه، حتى صار ينتقل من جيل إلى جيل ، ويسري من عصر إلى عصر سريان السموم في الدماء.

هذا الكيد لم يقتصر على تشويه بني أمية وحدهم ، واتهامهم بالتآمر على الإسلام والانقضاض عليه، بل تعدى بني أمية حتى شمل كلَّ رجال الإسلام الأولين تقريباً ، وكلَّ خلفائه وقواده اللاحقين تحقيقاً.

وفي بحث الأخ الكريم شيء من هذا غيرُ قليل ، فلم يسلم من غمزه عمر ولا أبو بكر ولا علي[١٧]رضي الله عنهم وأرضاهم، وغفر لنا عجزَنا وقصورَنا.

فالذين اتهموا بني أمية بالكيد للإسلام ، هم أعداء الإسلام حقاً، الذين عرفوا كيف يكيدون له ، وليس بنو أمية هم الذين كادوا للإسلام !!!

---

(١٧) سنشير إلى ذلك فيما يلي إن شاء الله .

ونستطيع أن ندفع قائمةَ التهم التي يُكيلونها لبني أمية ، ورجال بني أمية ، إذا هدمنا الأساس الذي بَنَوْها عليه ، وهو أساسٌ واهٍ هارٍ ، سينهار بأهله في نار جهنم ، أعني اتهامَهم بفساد النية ، والكيد لهدم الإسلام .

هل يشهد العقل ؟؟

منذ تولي عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه سنة ٢٣هـ إلى سقوط مروانَ بن محمد آخر خلفاء بني أمية سنة ١٣٤هـ والدولة بهذا المفهوم أموية مع ملاحظة فترة «الثورة التصحيحية(١٨) التي حاولها الإمام علي كرم الله وجهه»، وهذه المدة تزيد على المائة سنة.

والسؤال الذي طرح نفسه بإلحاح : كيف يدوم سلطانٌ طوال هذه المدة ، مع ما فيه من قائمة المثالب والمعايب التي أوردها الأخ الباحث ؟؟

بل يلد السؤال سؤالاً آخر : إذا كان من الممكن أن يدوم السلطان والملك مع هذا الفساد كله، فكيف يتسعُ ويمتد ، ويقوى ويعلو، ويزدهر ، حتى يبلغَ هذا المدى من الاتساع ، وتدين له كل هذه الأجناس والجماعات ، ويوحدها في أمة واحدة، وتحت أمير واحد؟؟ بل كيف تزدهر العلوم والآداب ، ويستمر العمران في هذه الأمة بهذا الحد والوصف ؟؟

هل يمكن لأمة يطلق حاكمها العام «الضوء الأخضر لكل عمال الأمصار ليمدوا أيديهم حتى إلى أموال الصدقة »أن تعيش وتحيا كل هذه المدة ؟ هل يمكن لأمة «معظم ولاتها غلمان تثور حول دينهم وأخلاقهم الشبهات، وليس لهم من الصلاحيات غيرُ صلتهم بالخليفة» أن تعيش وتحيا بهذه الصورة؟؟

هل يمكن لأمة يقول حاكمها العام:«لنأخذن حاجَتنا من هذا المال، وإن رغمت أنوف أقوام »أن تزدهر وتبقى؟؟

بدون الرجوع إلى روايات ، وتمحيص الأسانيد ، وفضح المفتريات ، وكشف الأكاذيب تعالوا نحتكم إلى العقل.

(١٨) هذا التعبير ليس من عندي ، وإنما مستعار من الدكتور محرم .

هل يقبل عقل عاقل أن تقوم دولة بهذا الاتساع المكاني ، وهذا العمق الزماني ، وهي على ما وصفها الأخ الباحث ؟؟

وإذا كانت تكيد للإسلام ، فلماذا لم تعلن الانسلاخ عنه منذ عهد معاوية، أو مروان ، أو عبد الملك، أو الوليد.حاشا لله !!!

هذه النيات من يطلع عليها :

الذين يزعمون أنهم يعلمون النيات ، ويطلعون على خبايا النفوس والضمائر، يظلمون أنفسَهم ، فما كُلفوا بهذا دينياً، ولا كُلفوا به علمياً ودراسياً ، فما يقتضيهم(منهجُ البحث)(١٩) ولا (العلمُ) أن يتهموا بني أمية بأنهم «أسلموا قفزاً إلى سفائن الحكم الصاعد ، وشراءً للسلامة ، وكيداً للإسلام ، ليدمروه من داخله.

ولو حاكمناهم إلى المنهج العلمي الحق ، والمسلك الاستقرائي الأرشد ، لبطل ما يزعمون ، وسقط ما يدعون.

سر هذا الدين :

إن سر هذا الدين ، وقدرتَه على امتلاك نواصي القلوب حينما يفتحها الله لغريبٌ عجيب ، فما إن يشهد الرجل : ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، حتى يتبدل خَلقاً آخر، وتتفتح نفسُه بمعان جديدة ، وصور جديدة ، وأحاسيسَ جديدة ، لم يألفها من قبل ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، يجدها الباحث مدَّ يده لو أراد ، فهذا (أبو جندل) و(أبو بصير) ، يُسلمان بمكة بعد صلح الحديبية ، وتاريخهما وسيرتهما أشهر من أن تروى ، وهذا (نعيم بن مسعود) يسلم في أثناء غزوة الخندق ، وما هي إلا ساعات من إسلامه، حتى كان له دور في حسم المعركة لصالح المسلمين ، وهو رجل فرد ، أسلم لتوه.

وذلك الذي كان يأتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم مغتالاً غادراً،

---

(١٩) أيها المنهج كم من الجرائم ترتكب باسمك ، ورحم الله عملاق العربية العقاد ، فقد سخر من هؤلاء يوماً، فقال: إذا زدنا تعطيش (الجيم) يصير(المنهش).

فما إن يكلمه أو يمسحُ على صدره ، حتى يصير بنفسه وماله وولده فداء للرسول وللإسلام .

ما إن يسلم الرجل حتى تتفتح في فؤاده صفحةٌ جديدة:

«صفحة يقرأ فيها القارىء قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس ، ويعلمُ منها قبل كل علم ، أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التي تسيطر على هذا الوجود(٢٠)».

كيف وقد فصل صلى الله عليه وسلم في القضية ؟

كان صلي الله عليه وسلم موصولاً بالسماء ،تُعلمه بأهل النفاق ، وسماهم بأعيانهم عليه الصلاة والسلام(لحذيفةَ)صاحبِ السر المكنون رضي الله عنه، فكيف يغيب عنه صلى الله عليه وسلم نيات هؤلاء الأمويين الطلقاء؟؟ وكيف يوليهم الولايات ، والأعمال ، والمهمات؟؟

فقد ولى صلى الله عليه وسلم (عتابَ بنَ أسِيد بنَ أبي العاص بن أمية) على أفضل الأرض وأطهرها ، على مكةَ المكرمة ، وهو أول والٍ لها بعد الفتح ، ولم يكن قد مضى على إسلامه إلا قليل ، فهو من مسلمة الفتح، ثم إنه كان يومها في مقتبل العمر ، لا يزيد عن العشرين إلا قليلاً، وأقام للناس الحج في موسمهم بعد الفتح سنة ثمان ، أي أسلم في رمضان، وأمَّ الحجيجَ بعد نحو شهرين. وقد قال له صلى الله عليه وسلم :« ياعتابُ: تدري على من وليتك؟ وليتك على أهل الله عز وجل ، ولو أعلم لهم خيراً منك ، استعملته عليهم»(انظر أسد الغابة: ٣٥٨/٣).

«واستعمل صلى الله عليه وسلم على نجران (أبا سفيان) كما أشرنا من قبل.

واستعْمل (خالدَ بنَ سعيد بنَ العاص) على صدقات بني مُذحج ، وعلي صنعاء واليمن.

واستعمل (عثمانَ بنَ سعيد بنَ العاص) على تيماء ، وخيبر ، وقرى

---

(٢٠) من كلام العقاد في وصف أثر الإسلام في نفس عمر.

عرينة.

واستعمل (أبانَ بنَ سعيد بنَ العاص) على بعض السرايا ، ثم استعمل على البحرين ، فلم يزل عليها حتى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم»(٢١)

أبعد هذا يصح لقائل أن يشقشق بلفظ (الطلقاء) أو (النيات) أو(الكيد) أو (المنتفعين بالإسلام) أو .. أو .. ؟؟

لقد فصل في القضية المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وصدق الواقعُ قضاءَه ، وصدّق المستقبلُ حكمَه ، وأقر العقلُ المستقيم أمرَه.

وشهادة ثانية :

إذا كانت شهادة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لصدق إسلام بني أمية ، ويقين إيمانهم ، قد جاءت مفهومة من توليتهم الولايات والأعمال ، فيما أوردناه آنفاً.

- فقد جاءت صريحة ناطقة باللفظ (بالمنطوق كما يقول الأصوليون) فيما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها؛ إذ قالت : جاءت هندُ بنتُ عتبة فقالت:«يارسول الله ، ما كان على ظهر الأرض أهلُ خباء(بيت) أحبَّ إليَّ أن يذلُّوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهلُ خباء أحبَّ إلى أن يعزّوا من أهل خبائك ، قال : وأيضاً.والذي نفسي بيده».

ويقول الحافظ في الفتح :أراد بقوله : وأيضاً ، أي وزيادة ،أي وستحبينني أكثر.

وننبه هنا إلى أمور :

* أن رواية عائشة رضي الله عنها ، وبصفتها امرأة أقدر على أن تعرف ما بنفس (هند) رضي الله عنها، فلو لمحت دخَلاً أو تمويها ، أو زيفاً، ما قالت، ولا روت الحديث، أو علقت عليه.

* أن من يعرف (هنداً) وقوة نفسها، وعظمتها وكبرياءها، واستقامةَ طبعها، إنْ في الجاهلية وإن في الإسلام ، من يعرف ذلك -يستيقن صدقَها.

(٢١) العواصم من القواصم : ٨٨ من تعليق العلامة محب الدين الخطيب.

فإذا صدقها صلى الله عليه وسلم ، فهو صدقٌ فوق صدق. ولتسقط دعاوى (التقية) و(النفعية) .. .. وما يدور في رءوس البعض من أوهام .. إلخ.

ولهند في جاهليتها موقفٌ مشابه ، مع زينبَ بنتِ المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقد كانت بمكةَ مع زوجها أبي العاص بن الربيع ، وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم من يأتيه بها إلى المدينة، وكان ذلك بعد (بدر) ولما تجف دماء قريش بعدُ، وكانت (هند) قد أصيبت بأبيها وأخيها وعمها، وكانت تطوف على مجالس قريش وأنديتها تُذكي نارَ الثأر ، وتؤجج أوار الحرب ، وفي الطريق لقيت (زينبَ) بنتَ المصطفى رضي الله عنها (وكان قد تسرب خبرُ استعدادها للخروج لأبيها) فماذا قالت لها؟؟ قالت هند: (أي بنتَ محمد: بلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك !! .. أي ابنةَ عمي ، إن كانت لك حاجة بمتاع ممايعينك في سفرك ، أو بمالٍ تبلغين به إلى أبيك ، فعندي حاجتُك ، فلا تستحي مني ، فإنه لا يدخل بين النساء ، ما يكون بين الرجال).

تروي زينب رضي الله عنها ذلك ، وتقول:« .. ووالله ما أراها قالت إلا لتفعل».

ثم يوم خروج زينب يتعرض لها رجالٌ من قريش ، يريدون إرجاعها ، فتسقط من على ناقتها، وكانت حاملاً، فتنزف ، وتسمعُ هند، فتخرج مسرعة، وترفع عقيرتها في وجه قومها:(معركة مع أنثى عزلاء؟؟ أين كانت شجاعتكم يوم بدر؟) وتحول بينهم وبين (زينب) ، وتضمها إليها، وتمسح عنها مابها، وتُصلح شأنها، حتى استأنفت الخروج إلى أبيها في أمن وأمان.
هذه هند !! فأيٌ بها أشبه ؟؟

كليات وجزئيات :

بمنطق (الإسقاط) يذهب الأخ الباحث إلى أن تغييراً في (الأيديولوجية)(حسب تعبيرهم الآن) قد وقع في عصر عثمان رضي الله عنه، وكأن الدولة استبدلت بكتاب ربها الذي قتل عثمان وهو يتلوه(فلسفةً)

أخرى، فيرى أن «الخلاف انتقل مع مجيء عثمان رضي الله عنه ، واتسع إلى حدوده الطبيعية ، إن لم يكن تجاوزَها » ص ٢٦ ع٢ س٣ من أسفل.

وهو يقصد بالحدود الطبيعية ، ما أسماه (بالكليات القيمية) ويعني بها فيما يعني: النظرة إلى الخلافة ، وطبيعتها ومصدرها، والنظر إلى المال: مال الدولة.

ولست أدري هل يقصد بذلك أن اقتصار الخلاف في عصر الرسول صلي الله عليه وسلم والشيخين من بعده على«النظر في الأمور التفصيلية لتعقيدات الحياة اليومية»- كان قصوراً في السياسة ، ونقصاً في الفهم ، حيث لم يبلغ «الحدود الطبيعية» فهو بذلك يطبع ما قبل عثمان بالقصور والسذاجة ، ثم يطبع عصر عثمان ومابعد عثمان بالفساد والكيد للإسلام.؟

قميص الخلافة :

يقول:«لقد شمل هذا الخلاف فيما شمل من(الكليات) طبيعةَ الخلافة ، فقد رأى فيها عثمان رضي الله عنه، ما جعله يقول:(ماكنت لأخلع قميصاً قمّصنيه الله عز وجل) أو يقول: (لأن أُقدم فتُضرب عنقي أحب إلى من أن أنزع سِربالا سَرْبلنيه الله عز وجل)، ورأيُ عثمان هذا يرفع عنه المساءلة أمام الناس ، وهو رأي وافقه فيه البعض ، ولكن خالفه فيه كثيرون ، بل وخرجوا عليه بسببه»أ.هـ ص٢٧ع١س٩.

يريد -عفا الله عنا وعنه- أن يقول : إن عثمان فهم أن الخلافة جاءته تفويضاً من الله ، فليس لأحد أن يسائله ، وبهذا الشعور اندفع في استبداده وأخطائه. هذا ما يريد أن يقوله بالتحديد.

ولست أدري من أين فهم هذا الفهم ؟ ولا كيف فهمه؟ لو عاد إلى قراءة هذا الخبر الذي وردت فيه هذه العبارة عن عثمان رضي الله عنه ، وقرأه كاملاً في سياقه، ولم يقرأه مبتوراً ، لوجد أن عثمان لم يفهم أبداً أنه فوق المساءلة ، وأن الخلافة منحه الله إياها، ليصير ظلّ الله في الأرض ، لا

يسائله بشر !! لا يقول بذلك تاريخ عثمان، ولا مواقفهُ ، مع الخارجين عليه ، الذين استجاب لهم ، وعزل عماله وولائه إرضاءً لهم ، وقد روى الباحث نفسُه شيئاً من ذلك في ثنايا حديثه ، وعثمانُ رضي الله عنه حينما قال ذلك القول، كان في موقف المستشير ، يؤيد ذلك ما أورده البلاذري في أنساب الأشراف (٧٦/٥) من حديث نافع عن ابن عمر:«أن ابنَ عمرَ دخل على عثمان ، فقال له: انظر ما يقول هؤلاء!! يقولون : اخلع نفسك أو نقتلك.

قال له ابن عمر : أمخلد أنت في الدنيا؟

قال : لا

قال : هل يزيدون على أن يقتلوك؟

قال : لا

قال : هل يملكون لك جنة أو ناراً؟

قال : لا

قال : فلا تخلع قميصَ الله عنك، فتكونَ سنةً ، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه»(راجع ابن العربي: العواصم :١٣٠، ومحب الدين الخطيب هامش(١) نفس الصفحة).

وورد في (الطبري:١١٧/٥، ١١٨، وفي البداية والنهاية:١٨٤/٧، وفي أنساب الأشراف :٩٢/٥) رواية أخرى:«أن عثمان رضي الله عنه جيىء إليه بالأشتر، فقال :يريد القوم منك إما أن تخلع نفسك ، أو تقص منها ، أو يقتلوك!! فقال: أما خلعي نفسي ، فلا أترك أمة محمد بعضها على بعض..» وانظر (ابن العربي: العواصم :١٢٩، ومحب الدين الخطيب هامش(٣) الصفحة نفسها)فذو النورين رضي الله عنه لم يخلع نفسه(لنظرية كلية في فهم طبيعة الخلافة وفلسفتها) وإنما كان ذلك وزناً للأمور وتقديراً ورعايةً لمصلحة الأمة، رأى هو هذا الرأي ، واستشار ، فأشار عليه به الصحابي الفقيه ابنُ عمر رضي الله عنه ، وهو من هو تعبداً وورعاً وإخلاصاً، وعلماً ونوراً ، وللأسف لا يسلم من الغمز ، فيقول الأخ الباحث ، عن رأي عثمان هذا:«.. ووافقه فيه البعضُ » سبحان الله !! البعض هذا هو ابنُ عمر رضي الله عنه، ولا أدري بماذا أصف إخفاءه (وهذا الإخفاء يعتبر بمعايير علمائنا نوعاً من التدليس)لاسم ابن عمر هنا، ففيه ما فيه من إلقاء

ظل التهمة والشك والريبة على هذا الذي وافق عثمانَ في (فلسفته ونظريته)، لعلمه أنه لو أظهر اسمه ، لكان للقارىء من الخبر موقف آخر.

وكأني بعثمانَ رضي الله عنه تذكر بفتوى ابن عمر هذه حديثاً حدثه إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال له: «ياعثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوماً ، فأراداك المنافقون أن تخلعَ قميصك الذي قمّصك الله ، فلا تخلعه» يقول ذلك ثلاثاً(٢٢) (راجع ابن ماجه رقم ١١٢ باب ١١، ومسند أحمد : ٧٥/٦ ، ٨٦ ، ١١٤، ١٤٩).

بل كل مسلم يعلم أن الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى ومردها إليه برغم الأسباب الظاهرة القريبة ، فهو سبحانه مسبب الأسباب ، ولذا صح أن تُسند الأمور إليه، فالمسلم دائماً يقول عن ماله، أو جاهه، أو سلطانه : هذا من الله ، ومن فضل الله ، ولا يعني ذلك أنه لا يعترف بالأسباب من جد أو اجتهاد ، أو تولية من الحاكم العام ، أو أصوات الناخبين في الانتخابات ، فعثمان رضي الله عنه حينما قال ذلك ، لم يفلسف (نظرية كلية في طبيعة الخلافة) ولم يكن قد نسي أبداً أنه تولاها باختيار من بين الستة أصحاب الشورى.

وأي قميص هذا مهما بلغ يدفع الإنسان حياته ثمناً له؟!! لقد كان الموت أمام عينيه رضي الله عنه، فأين خلع القميص ، وهو مخلوع لا محالة بالموت ؟!!!

إنها التضحية بالنفس في سبيل الله ، حتى لا يتحمل وزرَ سنة يسُنها في نظام الحكم الإسلامي ، بل إن إباءه رضي الله عنه أن يدافع عنه أحدٌ من الصحابة ، كان ضرباً عجيباً من الاستسلام لقضاء الله «ولم يُؤثر أن يراق بسببه محْجمة دم ، حتى قال لغلمانه: من ألقى سلاحه ، فهو حر»(راجع :غياث الأمم في التياث الظلم لإمام الحرمين: فقرة ١٨١ ، الطبقات لابن سعد: ٦٦/٣).

---

(٢٢) والحديث صحيحٌ ، انظر صحيح ابن ماجه، وظلال الجنة في تخريج أحاديث كتاب السنة لابن أبي عاصم ، وتخريج مشكاة المصابيح(كلها للألباني)

لمن المال ؟؟:

يرى الكاتب أن «طبيعية مالية الدولة الإسلامية ، إحدى (الكليات)التي نشب حولها الخلاف ، فقد رأى فيها عثمان رضي الله عنه، والولاة من أقاربه ، وفي مقدمتهم معاويةُ رضي الله عنه أن المال (مالُ الله) الموكول إليهم للتصرف فيه كيفما شاءوا ، بينما رآه الآخرون ، وعلى رأسهم الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه «مال المسلمين» وللمسلمين الحقُّ في مراجعة الخليفة بشأنه ومحاسبته عليه» ص٢٧ع ٢ س١.

وهذا أيضاً من بِدْع هذا العصر ، وفلسفته ، وهو تفسير للأحداث (بالإسقاط).والأمر أقرب من ذلك وأيسر ، وأهون مما يظن الظانون، فالمسألة لا تعدو خلافاً حول التصرف في فائض المال الذي أفاءه الله على المسلمين، سواء الأفراد أو بيت المال.

ذلك أن أبا ذر رضي الله عنه ، كان يرى أنه لا يحل للفرد ، ولا للدولة أن يبقى في ملكه ما يزيد عن قوت يومه وليلته ، أو شيء ينفقه في سبيل الله ، أو يعده لغريم، وكان يستشهد على ذلك بقوله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم»(التوبة :٣٤)وكأنه رأى أن ما فوق المال الذي يكفي لهذه الأغراض الثلاثة يعد من الكنز، الذي توعد عليه القرآن الكريم بالعذاب الأليم(انظر محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية:٩٦) وهذا خلاف فقهي ، لم يوافق أبا ذر عليه فقهاءُ الصحابةِ ، فابن عمر رضي الله عنه وهو من هو فقهاً وورعاً يقول: «ما أديت زكاته ، فليس بكنز ».

قال الإمام ابنُ تيميةَ رضي الله عنه في(منهاج السنة: ١٩٨/٣):«كان أبو ذر رجلاً صالحاً زاهداً ، وكان مذهبُه أن الزهدَ واجبٌ ، وأن ما أمسكه الإنسانُ فاضلاً عن حاجته، فهو كنز يكوى به في النار،واحتج على ذلك بما لا حُجةَ فيه من الكتاب والسنة.. ولما توفي عبدُ الرحمن بنُ عوف ، وخلف مالاً جعل ذلك أبو ذر من الكنز الذي يعاقب عليه ، وعثمان يناظره

في ذلك ، حتى دخل كعبٌ ووافق عثمان فضربه أبو ذر، وكان قد وقع بينه وبين معاوية بالشام(خلاف) بهذا السبب.

وقد وافق أبا ذر على هذا طائفة من النساك ، كما يذكر عن عبد الواحد بن زيد ونحوه .. وأما الخلفاء الراشدون وجماهير الصحابة والتابعين ، فعلى خلاف هذا القول، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :«ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة، وليس فيما دون خمس ذَوْدٍ صدقة..» فنفى الوجوبَ فيما دون النصاب ، ولم يشترط كونَ صاحبها محتاجاً إليها أم لا.

وقال جمهور الصحابة الكنز هو المال الذي لم تؤدَّ حقوقهُ ، وقد قسم الله المواريث في القرآن ، ولا يكون الميراث إلا من خلف مالاً ..

وكان أبو ذر رضي الله عنه يريد أن يوجب على الناس ما لم يوجب اللهُ عليهم، ويذمهم على ما لم يذمهم الله عليه ، مع أنه مجتهدٌ في ذلك مثابٌ على طاعته، رضي الله عنه كسائر المجتهدين من أمثاله ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه إيجاب ، إنما قال : «ما أحب أن يمضي عليّ ثالثةٌ وعندي منه شيء ، فهذا يدل على استحباب إخراج ذلك قبل الثالثة لا على وجوبه» أ.هـ ملخصاً من منهاج السنة ، لشيخ الإسلام بن تيمية.

فالمسألة واحدةٌ من المسائل الفقهية التي اختلفت فيها آراءُ الصحابة ، فهماً للنصوص ، ووزناً وتقديراً للأدلة ، وكلٌ مثاب على اجتهاده وجهده ، كما هو مقرر معروف.

وليس في المسألة (كليات) ولا جزئيات ، ولا نظريات ، كما حاول البعض أن يجعلوا أبا ذر رضي الله عنه اشتراكياً «وأدلةُ خطأ هذه الفكرة كثيرة ، يكفي أن نذكر منها اختلافَ الأساس الفكري ، والعقيدي الذي يصدر عنه كلٌ من مذهب الاشتراكيين ، ورأي أبي ذر رضي الله عنه ، ذلك الاختلاف الذي يجعل من العسير -إن لم يكن من المستحيل- إلحاقَ أحدهما

بالآخر، أو تدعيمَه وترويجَه بين الناس على أساسٍ منه»(٢٣)وإني أسأل الذين يتهمون عثمان، ويزعمون أنه ظلم أبا ذر وكان عليه أن يأخذ برأيه: هل يوافقون على رأي أبي ذر؟! وهل يصلح ذلك لحياة الأفراد؟ أو لسياسة الدولة؟ ، وإن من لهم إلمام بالفكر السياسي لأئمتنا يجد أن هذه المسألة مما عُنوا بها، وبتقابل الآراء فيها.

جاء في (غياث الأمم في التياث الظلم ، لإمام الحرمين): «فحاصل هذا المذهب، أنه لا يبقى في منقرض كل سنة في بيت المال مالٌ ، ويرتب في استقبال السنة المنتظرة أموالها» ثم يقول راداً لهذا المذهب : «والذي أقطع به، أن الحاجات إذا انسدت ، فاستمكن الإمامُ من الاستظهار بالادخار ، فحتمٌ عليه أن يفعل ذلك ، ولست أرى ذلك من مسائل التحري التي تتقابل فيها مسالك الظنون»(راجع الفقرات من ٣٥٤- ٣٦٥) لترى استدلالا رائعاً على وجوب ادخار الإمام واستظهاره بالأموال، وعدم نزف بيت المال كل عام.

بين معاوية وأبي ذر:

يروي الطبري :٦٦/٥ وأكثر المصادر الإسلامية أنه لما ورد ابنُ السوداء (عبدالله بن سبأ) الشامَ ، لقي أبا ذر ، فقال: يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية ، يقول :«المال مال الله ، ألا إن كلّ شيء لله؟» كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين. فأتاه أبو ذر ، فقال:«ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين(مال الله)؟ قال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عبادَ الله ، والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره؟ قال أبو ذر: فلا تقله.قال معاوية: فإني لا أقول : إنه ليس لله ، ولكن سأقول : مال المسلمين»(راجع العواصم:٧٤ هامش ٢).

---

(٢٣) محمد سليم العوا ، في النظام السياسي للدولة الإسلامي الطبعة السادسة :٩٨، (وانظر أيضاً: محمد الحامد : نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام - دمشق سنة ١٩٦٣م :١١) وراجع أيضا:(محب الدين الخطيب هامش ١ ص ٧٥ من العواصم).

فالأمر كان عند معاوية سهلاً ميسورا ، مجرد تسمية بيّن لأبي ذر وجهتها ، ولو كان أمرَ نظرية(وكلية من الكليات) ما تنازل معاوية بهذه السهولة ،وهو الألمعي الذكي، الذي يعرف كيف يجادل عن رأيه ، وأخبارُه في ذلك معروفة ، لا تحتاج إلى بيان.

بل إن تسمية المال(مال الله) فيها من التعظيم لحرمة المال أكثر من تسميته مالَ المسلمين. ولكن ابن سبأ عرف رأي أبي ذر في وجوب تفريق المال ،فأغراه بهذا التفسير لكلام معاوية.

نفي وانتقام :

حتى تبلغ الفريةُ غايتها، يكملون قضية الخلاف (حول طبيعة مالية الدولة الإسلامي) بين عثمان وأبي ذر، فيزعمون أن عثمانَ نفى أبا ذر إلى (الربذة) نفياً (إدارياً)، ويستغلون في ذلك موتَ (أبي ذر) بالربَذة معتزلا بعيداً عن الناس. موهمين أن(الربَذة) كانت منفى ، يشبه ما يعده حكام عصرنا (المتحضرون).

أين الربذة ؟

يقول ياقوت في معجمه :«كانت الربذة من قرى المدينة على بعد ثلاثة أميال منها، وكانت من أحسن منزل في طريق مكة ، قريبة من ذات عرق» ، فالربذة إذاً من ضواحي المدينة ، ومن أحسن المنازل ، فكيف تصلح منفى للانتقام؟

ولم يكن خروج أبي ذر إلى الربذة بإكراهٍ من عثمان(رضي الله عنهما) عند محققي المؤرخين ، جاء في تعليق محب الدين الخطيب على العواصم (ص ٧٦) مانصه:

« ذكر القاضي ولي الدين بن خلدون في(العبر) : بقسم ١٣٩/٢ أن أبا ذر، استأذن عثمانَ في الخروج من المدينة ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سَلْعا» ، فأذن له ، ونزل

الربذةَ ، وبنى بها مسجداً، وأقطعه عثمان صَرْمة (قطعه) من الإبل، وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه رزقاً وكان يتعاهدُ المدينةأ.هـ.

وبهذا أيضاً قال القاضي ابنُ العربي في العواصم نفس الصفحة(٧٦):«فلما قدم المدينةَ اجتمع إليه الناس ، فقال لعثمان :أريد الربذة ، فقال له : افعل »

ولعل قائلا يقول: روايات (إخباريين) لا تنهض في وجه روايات آخرين،يقولون بأنه خرج منفياً: **فنحاكمهم إلى حديث البخاري الذي لا يردّه مسلم ، فقد روى في صحيحه عن زيد بن وهب قال:«مررت بالربذة ، فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه،فقلت له:ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال:كنت بالشام فاختلفتُ أنا ومعاوية في:(والذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله).. فلما قدمتُ المدينة كثر على الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك،فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي:إن شئت تنحيت فكنت قريباً. فذلك الذي أنزلني هذا المنزل،ولو أمروا عليّ عبداً حبشياً،لسمعت وأطعت»(فتح الباري:٣/٢٧١حدث رقم ١٤٠٦) فهذا نص في أن أبا ذر اختار التنحي إلى الربذة بمحض اختياره،وليس محكوماً عليه بالنفي من عثمان.**

وقد قال الحافظ في شرح الحديث :«وإنما سأله زيدُ بنُ وهب عن ذلك ،لأن مبغضي عثمان كانوا يشنعون عليه أنه نفي أبا ذر ، وقد بين أبو ذر أن نزوله هذا المكان كان باختياره ، ويضيفُ الحافظ في الشرح رواية أخرى من طريق عبد الله بن الصامت :«أن عثمان رضي الله عنه قال لأبي ذر بعدما جاء من الشام: إنما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة ، فقال: لا حاجة لي في ذلك ائذن لي بالربذة ، قال: فلم يكن إذاً من عثمان نفي ، وإنما كان رغبة من أبي ذر ، تبرماً من التفاف العامة ، وخوفاً من أن يفهموا كلامه على غير وجهه ، وكانت الربذة باختيار أبي ذر، ووصله عثمان وأعطاه ، وأعانه وأكرمه ، رضي الله عنهم أجمعين(انظر أيضاً محمد سليم العوا- في النظام السياسي:٩٧) و(انظر أيضاً الكامل لابن الأثير:٣/٤٠ ومابعدها).

لا نفي ولا ضرب :

في مهارة وخفة يطعن الخليفةَ الثالث طعنة بل طعنات في جملة واحدة، حين يقول : «هذا الفهم العثماني لطبيعة السلطة هو الذي دفع عثمان رضي الله عنه إلى التخشن في معاملة كثيرين من خيار الصحابة مثلِ عبدِ الله بنِ مسعود ، وعمارِ بن ياسر ، وأبي ذر رضي الله عنهم ، فضَرب بعضَهم ونفى بعضَهم الآخر»(ص ٢٧ ع ١ س ١٨).

وكا ثبت آنفاً كذبُ دعوى النفي نجد الإمامَ ابن العربي يصف دعوى الضرب قائلاً:«وأما ضربه لابن مسعود ومنعُه عطاءه فزورٌ، وضربُه لعمارٍفكٌ مثله» (العواصم :٦٣) وقد بلغ ضيق ابنُ العربي بهذه المفتريات أنه رفض أن يناقشها،أو يحكي مناقشةَ العلماء ، ورفضَهم إياها قائلا:«لا ينبغي أن يُشتغل بها، لأنها مبنيةٌ على باطل ، ولا يبنى حق على باطل ، **ولا نُذهب الزمان في مماشاة الجهال، فإن ذلك لاآخر له»(العواصم:٦٥) هكذا قالها ابن العربي منذ نحو ألف سنة:«لا تُذهب الزمان في مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له»** ومع ذلك ما زلنا للأسف وبكل مرارة نضطر لضياع الوقت والجهد في(مماشاة الجهال) ورد مفترياتهم عن صحابة رسول الله الكرام.

والثابت أن ابنَ مسعود كان يعظم عثمانَ ويعرف له حقَّه وقدرَه ، وقد قال حينما بويع عثمان بالخلافة :«بايعنا خيرَنا ، ولم نألُ» وكان عثمانُ يعرف لابن مسعودٍ قدرَه وحقه كذلك ، فكان خازناً له على بيت مال الكوفة ، وكان سعد ابنُ أبي وقاص أميرها ، ولما اختلفا وتلاحيا(بسبب قرض اقترضه سعدٌ من بيت المال) استدعاهما عثمانُ ، وعاتبهما ، وعزلَ سعداً ، وأبقى عبدَ الله بن مسعود (انظر الطبري : ٤/٢٥١).

وأما ما نشأ من خلاف بين ابن مسعود وعثمانَ بعد ذلك ، فسببه ما كان من عمل عثمانَ في جمع الناس على مصحف واحد، وأمره بغسل جميع المصاحف سوى المصحف الإمام ، الذي كتبه جماعةٌ من حفاظ الصحابة على

رأسهم زيدُ بنُ ثابت رضي الله عنه، وكان اختيارُ عثمان لزيدٍ اتباعاً لأبي بكرٍ وعمر ، وكانا قد اختاراه لجمع المصحف في عهد أبي بكر ، وذلك لأن زيداً رضي الله عنه هو الذي حفظ العرضة الأخيرة لكتاب الله على الرسول صلوات الله عليه قبيل وفاته ، فكان عثمان على حق في هذا وهو يعلم ، كما يعلم سائر الصحابة- مكانةَ ابن مسعود، وعلمَه وصدقَ إيمانه، وكان جمهور الصحابة مع عثمانَ رضي الله عنه.. ولم يثبت أنه ضرب ابنَ مسعود ولا منعه عطاءه ، وبقي يعرف له قدره ، وبقي ابنُ مسعود على طاعته لإمامه الذي بايع له ، وهو يعتقد أنه خير المسلمين ، منذ وقت البيعة(راجع منهاج السنة: ٣/١٩١-١٩٣، العواصم:٦٣ هامش ٢).

والأمرُ في قصةِ (ضرب عمارِ بنِ ياسر) أقربُ من هذا، فلم يكن من عثمان ضربٌ ولا إهانة ولاتعذيبٌ ، كما يوهم هؤلاء الموهمون، ويحاول هؤلاء المجادلون ، وإنما كانت إقامةُ حدٍّ من حدود الله ، فقد تشاتم عمارٌ وعباسُ بنُ عتبةَ بنُ أبي لهب ، ورُفع الأمر إلى عثمان ، ولعله رضي الله عنه مراعاةً لمنزلة عمارٍ وسبقه أقام الحدَّ عليه بنفسه ، ولما بلغه غضبُ عمارٍ وتذمُّره استدعاه رضي الله عنهما وقال له :

« ياأبا اليقظان ، قذفت ابنَ أبي لهب أن قذفك .. وغضبتَ عليَّ أن أخذتُ لك بحقك ، وله بحقه ، اللهم قد وهبتُ ما بيني وبين أمتي من مظلمة ،اللهم إني متقرب إليك بإقامة حدودك في كل أحد ، ولا أبالي ..» راجع الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق :٧/٤٢٩ عن محب الدين الخطيب تعليقات على العواصم من القواصم ص٦٤.

ومع ذلك ظل عمارٌ موضعَ ثقةِ الخليفة ، ومستشارَه ، يستعين به في مهمات الأمور، ويكفي دليلاً على ذلك أن عماراً كان مبعوث الخليفة الشخصي (بلغة عصرنا) إلى مصر ليستطلع أحوال من فيها من السبئيين والمناوئين الذين يؤلبون على عثمان !!!

وعذراً سنقول مع ابن العربي ثانية : «لا نُذهب الزمانَ في مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له».

إلام انتهى الباحث ؟؟

لقد انتهى باحثنا الكريم الدكتورمحرم إلى نتيجة خطيرة ، بل أكبر من خطيرة ، وللأسف كانت هذه النتيجة من الوضوح (عنده) إلى درجة أنه قطع بها، وتأكيداً لهذا القطع والجزم تعجل بها ، فقدمها بين يدي كلامه.

وهذه النتيجة هي :«استحالةُ التفاهم مع الآخرين الذين هم منا ، واستحالةُ الإنصاف في تقويمهم قولاً وعملاً» وهاك نص عبارته :« فلدينا من الموانع الموروثة ما يحول دوننا والتفاهم معهم (الآخرين الذين هم منا) أو الفهم عنهم ، أو الإنصاف في تقويمهم قولاً وعملاً».

والسؤال الآتي:ماذا بعد ذلك ؟ ما الحل ؟ وكيف العلاج؟ كيف نتخلص من «الموانع الموروثة» وهل نملك ذلك أو نستطيع إليه سبيلا؟؟

إن هذه الإجابة جبلٌ من جبال اليأس يسدّ الطريقَ على كل تفكير في الإصلاح ، ويقطع الأملَ في أي علاج!! وهذا هو الخطر الأكبر الذي يترتب على تشويه تاريخنا وتزييفه بهذه الصورة ، وهذا تحقيق للقول الحكيم:«إن التاريخ ليس علم الماضي، بل هو علم الحاضر والمستقبل» وما لم تصحح أمتنا تاريخها، وتعي ماضيها، وتعرف كيف تقرؤه ، وكيف تحلله، وكيف تفهمه ، لن يستقيم لها طريق إلى مستقبلها، ولن يسلم لها حاضرها.

رابعاً: موقفنا من أفكار الآخرين الذين هم غرباء عنا :

وسنحاول أن نطوي الأوراقَ ، ونرفع الأقلام ؛ إيثاراً للإيجاز ، وطلباً للاختصار، فنلخص كلامنا فيمايلي:-

يرى الباحث استحالةَ النقل المادي عن الحضارة: حضارة الآخرين دون التأثر بالإفرازات المعنوية لهذه الحضارة ، ويضرب أمثلة «بالقيم المعنوية التي هي ولابدّ منتقلة مع المستورد من السيارات والطائرات ، وأجهزة

التكييف ، وأجهزة الإعلام ، وغيرها الكثير من منجزات العصر المادية».

ثم يهاجم بعنف الرأيَ القائلَ بأنه من الممكن أن ننقلَ المنجزات المادية للحضارة ، دون إفرازاتها المعنوية ، ويرى أنها (زعمٌ) خاطىء و(مغالطة) و(حماقة) ، والأولى أن نورد نص كلامه ، حيث قال :«ولعل في هذه الأمثلة التنبيهُ الكافي إلى المغالطات التي يرتكبها البعض ؛ إذ يزعم أن في الإمكان نقل الإنجازات المادية عن الآخرين ، دون التأثر بقيمهم الفكرية ، وإبداعاتهم المعنوية، كما أن فيها الإدانة المناسبة للحماقات التي يدمنها آخرون حين يقوِّمون ثقافات الآخرين، من منطلقات انتقائية ، فيرون في إنجازاتها المادية قمة سموٍّ ، بينما هم يتوهمون في إبداعاتها الفكرية، والقيمية والسلوكية قاعَ انحطاط »أ.هـ بنصه : ع ٢ ص ٤٢

والباحث كما ترى يخرج بهذا الرأي على كل رجال الفكر والرأي ، وينكر ويتنكر لكل تجارب الأمم ، ومواريث العصور، فلم نر قبله من يقول بهذا التلازم بين الإنجازات المادية ، والقيم الفكرية ، والإبداعات المعنوية ، أبداً لم يقل بهذا أحد ، ولم نسمع به من قبل .

كما أنه مخالفٌ لما هو واقعٌ أمام أعيننا وتحت أيدينا ، ولما هو معروف في تاريخ الأمم ، وتجارب العصور.

فمما هو واقع أمامنا الآن ، ويجري تحت سمعنا وبصرنا ، ما نراه من الصراع حول احتلال ناصية الإنجازات المادية ، بدون التأثر (بالقيم الفكرية) و(الإبداعات المعنوية) فلا ينكر أحدٌ أن الصين استطاعت أن تنقل «الإنجازات المادية» دون «القيم الفكرية» و«الإبداعات المعنوية» ومثلها اليابان ، وقد حَكَوْا أن امبراطور اليابان احتفل في ميدان عام بإحراق شباب أولِ بعثة عادت من الغرب ، ذلك أنهم أرسلوا لدراسة «المنجزات المادية» والعودة بها إلى اليابان ، فهناك أغْرَوْهم بدراسة فلسفة التربية ومناهجها ، فلما عادوا «بالقيم الفكرية» و«الإبداعات المعنوية» كان جزاؤهم الإحراق بالنار، فإذا صح أن هذه العقوبة الحاسمة كانت هى السببَ في نجاة اليابان من الأخطبوط «الفكري» والمسخ «المعنوي» فنحن عندنا العشرات بل المئات -

ربما يعرفهم الدكتور محرم- يحتاجون للاحتفال بهم على طريقة امبراطور اليابان.

إن روسيا أو الصين على استعداد أن تدفع الملايين مقابل أن تحصل على سرٍّ من أسرار المخترعات «الإنجازات المادية»، ولكنها في الوقت نفسه على استعداد أن تدفع الملايين مقابل أن تمنع (القيم الفكرية) و(الإنجازات المعنوية) الغربية أن تعبر حدودها.

هذا هو واقع الحال الذي تلمسه الأيدي ، ولا ينكره أحد.

وهذا أيضاً ما ينطق به التاريخ ، فقد وقفت أوربا أما حضارتنا هذا الموقف ، استعاروا منا(الإنجازات المادية) فنقلوا علومَنا ، ومخترعاتنا، ومناهجنا حينما التقَوا بنا في الأندلس ، ومعابر الحضارة الأخرى ، ولكنهم لم يأخذوا (قيمنا الفكرية).

وكذلك فعلت أمتنا في فجر نهضتها ، وإبان مجدها، أخذت منجزات الحضارات والأمم السابقة ، وطوّعتها لها، وبنت عليها ، ورفعت بناءها ، ولكن لم تأخذ (قيَمها الفكرية) ووثنيتَها ، وانحرافها.

فلست أدري لما قاله الأخُ الباحث وجهاً ، ولم أكن بحاجة إلى الإطالة في مناقشته فيما استدل به من أمثال وحكم ، يرى أنْ فات أوانُها ، **لولا أنه تعرض للحديث النبوي الشريف ، وهو حديث صحيح :« إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى» وأورده مورد الاستهزاء والسخرية ، ناسياً إياه (العصر الركايب). وبقليل من التدبر يدرك الأخُ أن هذا المثل وهذه الحكم التي في معناه ، لا تعني أبداً، دعوة إلى البطء ، والتراخي، وضياع الوقت ، وإنما هى تعني: إحكام الأمر وحسن تدبيره ، وبذل الجهد في حدود الإمكانات ، والتخطيط للعمل على ضوء القدرات المتاحة ، وإن عصر (الركايب) هو نفسه الذي أنتج الحكمة القائلة:(الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك)** ، ولعل الأخ يرى الآن من نافذة مكتبه ، أو مسكنه مكتوباً أمام عينيه ذلك النداء الصارخ :«لاتُسرع وعد سالماً) وهو

نداء وليد(عصر الصواريخ والطائرات الأسرع من الصوت) وهو ليس على أية حال دعوة لتضييع الوقت والتراخي والتمطي ، وإنما دعوة إلى إحكام القبض على مقود السيارة ، وحسن تقدير الحركة ووزنها ، ولعله يذكر تلك الحكمة التي يقولها العقلاء الآن في عصر الصواريخ:(لا تسرع بي أيها السائق فأنا مستعجل) وقد قالها عصرُ(الركايب) بصورة أجمل وبعبارةٍ أكثرَ دقة وإحكاماً ، وأروعَ أسلوباً وجمالاً:« رُب عَجلةٍ تَهبُ رَيْثاً).

إن (عصر الركايب) أيها الأخ الكريم ، هو الذي غالى بالوقت ، وجعله أثمن وأغلى ما نملك ، بل جعله كل ما نملك ، فقال:«الوقت هو الحياة» إن أسلافنا قالوا وكتبوا عن الوقت وقيمته ما يملأ مئات الصحائف ، بل إن حياتهم وثمارَ أعمالهم ، وعددَ مؤلفاتهم يشهد بمدى حرصهم على الوقت وإفادتهم منه.

ولكن من يقرأ ؟

وما حيلتنا ، والذين يريدون أن يقودوا الفكر والرأي في أمتنا ، لم يعرفوا شيئاً عن تاريخهم ، ولم يدرسوا ، بل يقرءوا شيئاً عن تراثهم ، فهم يعادون (شيئاً) لم يعرفوه ، فلا تثريب عليهم ، إذ (الناس أعداء ماجهلوه)

على أية حال لو أنصفنا أنفسنا ، وراجعنا موروثنا الثقافي والقيمي من (عصر الركايب) لوجدناه يستوعب كل منجزات العصر، وقادراً على التلاؤم مع كل عطاء العصر ، وبدائع مخترعاته ، وليس عندنا -والحمد لله- بيقين ذلك الذي يقول عنه: « إن جميع المفاهيم الفكرية التي هي نبت وجود مادي قديم ، لابد أن تنقرض ، وتخلي الساحة لكل ماهو خير منها ، وهذا الذي هو خير إنما هو القيم والأفكار الجديدة التي ترتبط بالوجود المادي الحديث القائم وتتوافق معه».

ولعل ما سقناه من مناقشة لزعمه بأن (عصر الركايب) كان لا يقيم للوقت وزناً ويدعو للبطء والتراخي ، لعل ذلك فيه الكفاية ولو إلى حين.

ولكن الذي لا يُغفر للأخ الباحث هو ذلك الاستنتاج العجيب الغريب الذي ختم به بحثه ، فكان بئس الختام والعياذ بالله.

استمع إليه يقول :« ثم نقف أخيراً أمام حديث شريف يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو أنه صح ، لما جاز لأحد أن يتطاول ، فيزعم أننا ما عدنا في حاجة لأن نأخذ عن الآخرين شيئاً، من عوائدهم، ولا من أفكارهم ، ذلك أنه يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

«إن عبد المطلب سن في الجاهلية خمس سنن أجراها الله في الإسلام : حرم نساء الآباء على الأبناء ، فأنزل الله قوله:« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» ، ووجد كنزاً ، فأخرج منه الخمس ، وتصدق به ، فأنزل الله قوله:« واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ، وللرسول ، ولذي القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل..» ولما حفر زمزم سماها سِقاية الحاج ، فأنزل الله قوله تعالى « أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارةَ المسجد الحرام، كمن آمن بالله واليوم الآخر..» وسنَّ في القتل مائة من الإبل ، فأجرى الله عز وجل ذلك في الإسلام ، ولم يكن للطواف عدد عند قريش ، فسن فيهم عبدُ المطلب سبعةَ أشواط ، فأجرى الله ذلك في الإسلام»أ.هـ.

هكذا !!!

يقف أمام هذا الحديث ، ليأخذ منه الرد والقمع «لكل من (يتطاول) (فيزعم) أننا ما عدنا في حاجة لأن نأخذ عن الآخرين شيئاً »!!

فهو يقول صراحة: إنه كما أخذ الإسلام من الجاهلية القديمة ، فلا علينا إذا أخذنا نحن الآن من (الآخرين) من عوائدهم !!! ألسنا نقتبس كما اقتبس الإسلام من قبل !!!

ومن العجيب أنه يقول ذلك بثقة ويقين ، ويصف من يقول غيره (بالتطاول) و(الزعم) ، مع أن الأمر لو عُرض على أي مبتديء في العلم ، لأدرك فساد هذا القياس الجرىء !!! فكيف يسوي بين أمرٍ أدركه الإسلام من حسنات الجاهلية، فأقره وبين أمر« يزعم » هو أنه يأخذه الآن من عوائد(الآخرين) ليكمل به الدين (وحتى لا أغير تعبيره ولفظه:أقول : ليسد به ، حاجتنا) أين هذا من ذاك ؟؟

أين هو ، من قوله تعالى:«اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا»(سورة المائدة : ٤)

وأين هو من قوله صلى الله عليه وسلم:« لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنتي».

أيرى هو أنه كان على الإسلام أن يغير كلّ الأحكام والآداب والعوائد التي قبله، وإلا فمن حقنا نحن أن نأخذ من (الآخرين) مثلما أخذ؟؟

لقد جاء الإسلام فوجد الجاهليين يكرهون عقوق الآباء ، ويكرهون الكذب ، ويدعون إلى الصدق ، ويكرمون الضيف ، ويمدحون الأمانة ، أإذا أقر ذلك ونزل فيه قرآن ، أو ورد فيه حديث يكون معناه ، أن من حقنا أن نأخذ من (الآخرين) مثلما أخذ الإسلام من الجاهليين ؟؟ « ودقّة بدقّة»، سبحان الله ، ولله في خلقه شئون .. والبحث ألوان وفنون.

كل هذا على فرض صحة هذا الحديث «الذي وقف أمامه»!! ودعانا للوقوف معه أمامه !! فإذا كان هذا (الحديث) باطلا لا أصل له ، فستنهار الدعوى التي أقيمت عليه من غير عناء، وشأنه في هذا الحديث شأن كلام(الإخباريين) الذين تقوّلوا ما شحن به مقاله من أقاويل على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الطاهرين.

والأخ الباحث ، يرى أن « موقفنا من أفكار وثقافات الآخرين هو بغير شك موقف غير متوازن ، بل غير سوي» ص٤٣ ع١.

ويرى أن «البعض منا يتصوّر القرآن ويصوّره للآخرين حشداً عدائياً من النصوص ، يجمع قلوب المسلمين وعقولهم على الصدود العدواني تجاه المخالفين لهم في الدين» ص٥٥ ع٢.

وراح يجمع النصوص من هنا وهناك ، ويضرب الأمثلة من القديم والحديث يؤكد بها بدهيات : لا يجادل فيها ، ليثبت أن الإسلام دين التسامح، ودين الحرية ، لا يرفض الرأي الآخر ، وأننا لا نملك تجاه المعاندين إلا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ونحن مع الباحث الكريم في أن الإسلام دين التسامح ، ودين الحرية ، يقبل الرأي المخالف ، ويتعايش معه ، ولا يملك تجاهه إلا الدعوة بالموعظة الحسنة والجدال بالتي هى أحسن ، ولا يكره أحدا أيا كان ،بل يأمر بحمايته حتى يبلغ مأمنه، والمثل الذي ضربه لسماحة الخليفة المأمون مع زعيم «المناوية» المجوسي ، وشموله برعايته ، ليس مثلا فذا ولا غريباً ، فأمتنا عرفت هذا منذ يومها الأول ، وهذا هو سلوك حكامها ، وعلمائها وقضاتها ، وعامتها وخاصتها على طول تاريخها إلى اليوم، وانظر حولك تجد أعشاش التبشير وأوكار الاستخبارات ومعاهد المسخ والتشويه والتدمير ، يقوم عليها، قساوسة وبطارقة ورهابنة في ثوب أساتذة حينا ، وفي ثوب خبراء ومساعدين حينا ، ومكشوفي الوجوه والهوية حينا آخر.

وأمتنا مع ذلك ترعاهم ، وتحميهم ، بل تحنو عليهم.

هذه هي أمتنا ، وهذا هو شأننا الذي ينبغي أن يكون ، ونحن نوافقك عليه . ولكن لنا ملاحظة صغيرة يسمح لنا بها الأخ الباحث تتعلق بمن يوجه إليه هذا الكلام، وبالوقت الذي يوجه فيه!!

لقد كُتب هذا الكلام في وقت عصيب ، وُجهت فيه ضربة قاصمة إلى العاملين في الحقل الإسلامي ، وإلى حملة دعوته ، في ثلاث دول عربية في وقت متقارب ، والفكر الإسلامي في باقيها في حالة يعلمها كل صاحٍ ونائم .

بل إن الحادث الآن أن الأقلية غير المسلمة في عدد من الدول الإسلامية تريد أن تفرض سيطرتها ، بل هي فعلاً فرضت نوعاً من السيطرة الفكرية ، بل الإرهاب الفكري ، وجعلت الكثرة الكاثرة ، والأغلبية المسلمة ، تفرض على نفسها ألواناً من المجاملة تصل إلى حد يمكن أن يوصف بالاستخذاء والخنوع ، فحين يُطلب من كاتب أن يبتر الآية الكريمة «إن الدين عند الله الإسلام» ويحذفها من مقاله رعاية لخاطر الأقلية غير المسلمة ، حتي لا تجرح مشاعرهم محافظة على الوحدة الوطنية ، حين يكون الوضع هكذا ، أليس من حقنا أن نسأل ، مجرد سؤال لا يحمل غير معناه: لماذا نقول ذلك الكلام في هذا الوقت ؟؟

والسؤال الثاني : لمن يتوجه الأخ بهذا الكلام ؟؟

أخشى أن يكون قد توجه به إلى المسلمين الذين يُحرَّقونَ ويُقتَّلون في الهند بعشرات الآلاف !! أو يتوجه به إلى المسلمين الذين أبيدوا في أوغندا ، وأخرج من بقي منهم على قيد الحياة ، من مدنهم وقراهم ، أم تراه يتوجه به إلى مسلمي (أوجادين في الصومال) أو مسلمي (أريتريا) أو مسلمي (أثيوبا) أو مسلمي (الفلبين) أو .. أو ... لا أريد أن أقول :إن سماحة المسلمين هي التي جنت عليهم ، أبداً لن أقول هذا ، ولكن أيضاً لن أقول للمسلمين المطحونين المشردين وهم أقلية ، والمفزّعين الخائفين ، وهم أغلبية : أين السماحة والمعاملة بالحسنى؟ لأني أخشى إذا قلت ذلك أن يفسر كلامي على غير ما أحب وأرضى.

والأخ الباحث يرى أن الدين لا مجال له في تقويم «أفكار الآخرين» وأن النظر في أفكار الآخرين من منطلق ديني من دواعي «الشذوذ»و « عدم التوازن» في التفكير والتقدير ، ويرى أن الدين لم يعد له وجود ولا أثر في الصراعات الموجودة في عالمنا الحديث . وقد أجهد نفسه ليثبت وهمَ من يقول بذلك ، وكان من أدلته:

- أن ألمانيا حطمت أوربا المسيحية.
- أن أوربا المسيحية استعمرت دولا مسيحية.
- أن أوربا المسيحية استعمرت أمريكا المسيحية ، و كان بينهما حروب» ص٤٨ ع٢ بتصرف يسير.

وهذه الأدلة لم تسلم له ، ولو سلمناها ، فهي لا تنهض دليلاً على أن الدين لا يوجه حركة الصراع في العالم ، فربما كانت حركة هتلر ذات (الصليب المعقوف) تبغي قيادة المسيحية كلها لعمل أخطر وأكبر ، بدليل عداوته لليهود الأعداء الألداء للمسيحية.

أما الصراع والحروب بين أوربا وأمريكا، فلم يكن عدواناً أوربياً على أمريكا المسيحية -كما يقول- بل إن المجتمعات الأمريكية نشأت -كما هو معلوم- من أصل أوربي ، وظلت مرتبطة بأوربا الأم ، حتى تضخمت ،

وقويت وكبرت الفروع وفاقت الأصول والأغصان والجذور ، فكان ما كان من صراع وحروب.

وأيّاً ما كان الأمر ، فإن الصراع بين هذه الدول المسيحية يظل محكوماً بضوابط الصراع بين أبناء العمومة. فنحن لا ننكر أن يكون بين الدول المسيحية صراع، فهذا ضد طبيعة الأشياء ، وإنما الذي ننكره أن يقال : إن هذه الدول لا تتحد ضدنا من منطلق ديني بل وعنصري ، إنها تختلف فيما بينها ثم تجتمع علينا، ولست أدري كيف يفسر الباحث إعدام هذه الدول لفائض الإنتاج الزراعي والحيواني ، على حين يعاني العالم الثالث من المجاعات ، وإن مشكلتهم في التخلص من بحيرة الحليب وجبل الزبد ، التي جعلتهم يتخذون قراراً في مجلسهم الاقتصادي الأوربي بإعدام الأبقار رمياً بالرصاص تخلصاً من زيادة إنتاجها ، ومن عجب أن تحمل وكالات الأنباء هذا الخبر مع نفس أخبار الضحايا الذين يسقطون جوعاً ، ومن أعجب العجب أن «مثقفينا» «المستنيرين» «المتحضرين» يستقبلون هذا التصرف ببلادة غريبة، وكأنه لا عجب ولا غرابة ولا شذوذ في ذلك ، وكأنما كتب عليهم أن يبرروا كل ما يقوم به(السادة) الغربيون ، بل ويدعوننا إلى أن ننهل من (أفكار الآخرين).

ويقول الباحث -تأكيداً لوجهة نظره- إن المسيحيين في الشرق لم يكونوا أسعد حظاً من المسلمين في ظل الاستعمار ، وهذا عدم معرفة بالتاريخ ، وعدم دراية بما كان ، فلو قرأ تاريخنا كما ينبغي ، لرأى كيف تعاون المسيحيون لا مع الصليبيين فحسب بل مع التتار أيضاً ، ولعله صدّق مسرحية المعلّم (يعقوب) ذلك المسيحي الذي تعاون مع حملة نابليون على مصر ، ولم يطق العيشَ بعدها فخرج مع الجنود الفرنسيين عند خروجهم ، وإن التزييف والتشويه للتاريخ جعله بطلاً (قومياً) يدافع عن (مصريّة) مصر ضد الأتراك ، ومثلوا مسرحية باسمه تعمق هذا التزييف ، وتنفي عنه خيانة أمته تعاوناً مع أبناء الصليب الجدد.

وحينما وجد الباحث أن دور الإسلام في الصراع ضد الاستعمار لا يمكن إخفاؤه، وأن الاستعمار لم ينكر عداءه الصريح للإسلام ، قال: إنه كان

يحارب الإسلام « لأنه رأى فيه عناصر تمايز ، ومدد قوة ومتاريس صمود ، وأسلحة كفاح ، فحاول جاهداً أن يحطم عناصر القوة هذه» ص ٤٨ ع١.

هكذا حين تلوح الحقيقة أمامه ولا يستطيع لها إنكارا، يحاول أن يفسرها قائلا: إنهم يعادون الإسلام ، ويضربون الإسلام ، لا بصفته دينا، ولكن بصفته عنصر تمايز ومدد قوة.

ويكفينا منه أن يصرح بهذا ، وينطق به ، فهم يضربون الإسلام سواء كان ذلك لذاته ، أو لأثره فينا ، المهم أن الدين هدفهم . وكفى هذا .

وحينما رأى أخبث أعدائنا يقيم دولته (إسرائيل) على أساس ديني فيتخطى العصور والدهور ويختار لها اسماً ينطق بمعناه ، وبما يعنيه (إسرائيل) ثم يبعث الروح في التوراة ويجعلها محور التعليم والثقافة والفكر ، والاتجاهات والاهتمامات ، ويحيي اللغة العبرية من موات ، ويجعلها لسانه الذي به يتعلم ، ويتكلم ، ويطرب ويغني ، يرى الباحث كل هذا ، فلا يصدق عينيه ، وأذنيه ، وما يلمسه بيديه.، ويقول إنها «عناصر دينية يوظفها العدو صبغة مظهرية للمجتمع الإسرائيلي» كذا قال ص٤٩ ع١. ويقول:«إنهم يقيمون في مواجهتنا مجتمعاً علمانياً معاصراً» كذا قال ص٤٩ ع١

ولست أدري كيف تختلط (العلمية) و(العلمانية) لدى الباحث بهذه الصورة ، إن كان يريد أن القوم أقاموا مجتمعاً يعتمد على العلم وأحدث معطياته ومنجزاته ، فهذا حق ، ولكنه تصوّر أن الدين خصيم العلم وقسيمه ونقيضه ، فلا يجتمعان، وأعياه أن يجد تفسيراً لاهتمام القوم بالدين والعقيدة ، فقال:«إن الدين عندهم مظهرية شكلية» والقوم في الواقع لا يعرفون المظهرية ، وإنما تركوها لنا.

وكنت أعجب من إصراره على إبعاد الدين عن مجال المعركة الآن في هذا العصر، ولكن الآن زال العجب ، فهو يظن أن الدين لا يمكن أن يجتمع مع العلم ، وما دام العلم هو مصدر القوة وعمادها ، فليتنح الدين وليبق العلم.

ملاحظات حول العبارات والألفاظ :

كذلك لم يسلم من تجاوزات التعبير والألفاظ ، والشطط في استخدامها، ونضرب مجرّد نماذج وأمثلة بمايلي :

* يستخدم تعبير «الدعوة المحمدية» بدلاً من «الدعوة الإسلامية»، وهذا استعمال الذين ينسبون المسلمين إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم لا يؤمنون برسالته ، فيجعلون المسلمين جماعته.

* يستعمل كلمة «التجديد» و «الثورة» للتعبير عن الإسلام ، وكلمة «الرجعية» و «المحافظة» في التعبير عن الكفر ، ولا يخلو ذلك من إيحاء بتفسير مادّي للصراع بين الكفر والإيمان.

* ويكثر في حديثه «الدعوة المحمدية الثورية» و «المجتمعات الثورية الناشطة الصاعدة» «الكثرة الكاثرة من الثوار» «شورية الثورة» «ديمقراطية الثورة» «الممارسات النضالية لكل عنصر في جيش الثورة».

* ولا يتورّع أن يستخدم مثل تلك التعبيرات في حق الرسول صلى الله عليه وسلم من مثل قوله:«وذلك رغم المساحة الكبيرة التي تظل حكراً للزعامة الثورية (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) تمارس فيها إدارة الصراع وتوجيه العمل الثوري..»

هكذا : الرسول زعامة ثورية تحتكر مساحة كبيرة من السلطة يمارس فيها إدارة الصراع وتوجيه العمل الثوري!! نعوذ بالله من الشطط والسقط.

* وفي جانب الصحابة رضوان الله عليهم يصفهم بأنهم «طليعة ثورية مؤمنة متمثلة في الصفوة من أصحاب الرسول الذين قادوا عن طريق حزب السابقين في الإسلام المجتمع من بعد »!!

هكذا كبار الصحابة وصفوتهم طليعة ثورية ، والسابقون في الإسلام حزب !!!

* ومن هذا الباب أيضاً هذه النعوت والصفات الجارحة ، والساخرة التي

وزعها على مخالفيه في الرأي وهو يتحدث عنهم من مثل :«تصورات عدوانية» «توهمات جاهلة» «تستخدم الشقاق اللفظي لعمل أحجبة» «انحيازاً جاهلاً وغبياً ينتقي ما يوافق هواه المتحامل» ، « يتعسف في استخدام ..» ، «أرى فيها انحيازاً متعالياً وغبياً» ، « التهوين الساذج»، « التحامل الطفولي » .. إلخ ..إلخ .

ليس أمراً شكلياً :

وربما بدا للبعض أن هذه ملاحظات شكلية ، وأن قصاراها أن نقول : إنه لم يحسن اختيار الألفاظ ، أو وضعها في مكانها المناسب لها ، ولكني أقول إن هذه «الألفاظ» وهذه «العبارات » لها ما وراءها فهي تنبيء عن خبيء ، إن هذه الألفاظ «مصطلحات» لها مدلولات ، ولها ظلال ، ولها إيحاء.

شنشنة أعرفها من أخزم :

إنني أرى وراء هذا الكلام (شخوصاً) تلوح بسحنتها الكالحة خلف السطور، وتبدوا قواريرُ السم بأيديها وراء المعاني ، وتظهر بصماتُها فوق الجمل ، ويفوح خبيث تآمرها من وراء العبارات.

أرى (ماكدونالد) و(فلوتن) و(فلهاوزن) و(جب) و(مرجليوث) وعصبتهم خلف هذا المقال. وحاشا أن أتهم الأخ الباحث بالنقل منهم ، ولا يمكن أن يرد لي هذا بخاطر ، وإنما قائمة مصادره التي أحال عليها ، تنطق بذلك ، وتشهد به ، فكلها من عصارات فكر المستشرقين ، وأصحابها تلاميذ مخلصون للمستشرقين ، وصل فكر أساتذتهم منهم إلى النخاع ، وهم لا ينكرون ذلك ، بل يفاخرون به ويباهون.

هدم بناءه بيديه :

لقد أقام هذا البحث الشامخ داعياً إلى التعامل مع «أفكار الآخرين» بدون طعن في النيات ، وبحثٍ عن الضمائر ، وتفتيش عن العقيدة ، واتهامٍ

بالكفر والزيغ والضلال، لهذا أقام بناءه.

ولكنه هدمه بيديه حين أدارحديثه كله على اتهام النيات والضمائر والطعن في العقائد ، حيث اتهم بني أمية بالكيد للإسلام ، وأنهم لم يكونوا مسلمين عن اقتناعٍ واعتقادٍ ، وإنما خوفاً من سوط الإسلام الزاحف ، وقفزاً إلى سفائن السلطة القادمة.كذا قال.

لم يسلم منه أبو بكر:

فقد غمز أبا بكر صدّيق الأمة ، بل اتهمه صراحةً ، وذلك إذ يقول : «ومواقف أبي بكر رضي الله عنه تجاه البيعة الأولى للاستخلاف ، ثم تجاه سعد بن عبادة رضي الله عنه المنافس له ، المناوىء عليه ،تكشف عن سياسي متمكن ، ومناور ذكي ، عينه على الإسلام ، وقلبه مع استمراره ، وعقله مع ديمومة دولته ، **فالرجل يقدم الآخرين ، فيقدمونه مرشحاً للخلافة فائزاً بها ، ثم هو لا يغضبه أن يمتنع سعدُ بن عبادة رضي الله عنه عن البيعة ، بل يتركه وشأنه ، محاذراً أن يغضب قومه ، وهم أحد الأعمدة التي يقوم عليها الإسلام في المدينة»أ.هـ. بنصه ص١٢ع١**

هكذا أبو بكر الصديق مناور ذكي!! يقدم الآخرين فيقدمونه للخلافه فائزاً بها، أي أنه رضي الله عنه حينما قدم عمر وأبا عبيدة للخلافة ، وعرض عليهما أن يبايعهما بالخلافة «كان مناوراً» ولم يكن يعني مايقول ، وإنما يطيب خاطرهما ، ويشهد لهما ، فيشهدان له ، على طريقة : (شيّلني وشيّلك)و(اشهد لي بدرهم أشهد لك بدينار).

ويؤكد غمزه هذا للصدّيق في موضع آخر حين يقول: «إن الذين امتنعواعن بيعة أبي بكر رضي الله عنه هم من الشخصيات العامة التي لا تقف بمفردها ، ولكنها مؤهلة لأن يجتمع حولها تأييد بعض المسلمين ، ولذلك فإن الحكمة السياسية تستلزم نوعاً من الحرص السياسي ، والود العملي في التعامل معهم ، بما لا ينشط قدراتهم الشخصية ، أو الوراثية ،

أو القبلية لجمع المزيد من المؤيدين حولهم في عقر عاصمة الخلافة ، وهذا هو ما قصده وما فعله أبو بكر رضي الله عنه»أ.هـ ص٢٠ع٢

أرأيت؟ إن أبا بكر سياسي ماهر عرف كيف يداهن ويصانع هذه الشخصيات الخطيرة ، حتى يأمن خروجهم عليه ، ونجح (بالحرص السياسي) و(الود العملي) في تحقيق ما أراد.

والواقع أن (الود العملي) هذا تعبير مبتكر يهنأ صاحبه عليه ، فنحن نعرف (الودّ) أمراً قلبياً يتعلق بالقلب والعواطف والمشاعر، فأما (الود العملي) فمعناه لاشك « تزييف للعواطف والمشاعر ، وتمويه للنيات والضمائر» ونعوذ بالله.

وعمر أيضاً :

نعم لم يسلم الفاروق من غمزه ولمزه ، حيث يقول: «..فعمر رضي الله عنه الذي لم يكن يصبر على تأخر سعد بن عبادة رضي الله عنه، أو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه ، يجمع أغلبية أهل الشورى في المدينة وراءه ، ويرى عدم قتال مانعي الزكاة» ص ٢٠ ع١.

هكذا !! عمر قادر على قتال الأفراد الذين امتنعوا عن البيعة لأبي بكر، لا يستطيع أن يصبر عليهم ، أما جماعات المرتدين ، فهو غير قادر على مواجهتهم ضعيف أمامهم ، يرى عدم قتالهم ، بل وأغلبية أهل الشورى يجرهم وراءه في هذا التخاذل. والعياذ بالله.

هذه مجرد أمثلة وتستطيع أن تجد في كلام الباحث منها الكثير.

يبريء ابن سبأ وآله :

ومن عجب أن هذا الذي لم يسلم منه أحد ، فاتهم بني أمية كلهم ، واتهم الصديق ، وغمز الفاروق والمعاصرين من الكتاب والمفكرين ، والعاملين في الحقل الإسلامي ، هذا الذي اتهم الجميع في نياتهم ينفي أشد

النفي وأبلغه أن يكون هناك دورٌ كيدي تآمري لابن سبأ والسبئيين ، فلا يستطيع عقله أن يتصور دوراً كيدياً لهؤلاء اليهود الحاقدين على الإسلام ، ولكنه مقتنع تماماً بما كاده بنو أمية للإسلام ، وبتآمر القيادات الإسلامية وكيدها بعضها لبعض. ونعوذ بالله من الخذلان.

بهذا النهج لن نتقدم أبداً :

منذ أزمان والجهود تبذل في صدق وإخلاص ، لتحقيق الأحداث ، وتصويب الأخبار ، وتدقيق الآثار ، ووصل العلماء ،والمحققون إلى الكثير في هذا الميدان ، أفبعد كل هذا الجهاد ، وهذه التصويبات ، وبيان الخطأ والزلل والخلل في هذه الروايات، يعود الدكتور محرم ليعتمد عليها ويتخذها أصلاً ، يعود ليبدأ من نقطة الصفر ، يعود ليتردى في نفس الوهدة التي أنقذنا فكرنا وتاريخنا منها ، ونعود نحن لنصحح ، ونصوّب ، ونحقق مرة ثانية ، فمتى نفرغ من هذه القضايا وننتقل إلى غيرها؟

إن (مسلماً معاصراً) يتخذ (الأغاني) و(الفتنة الكبرى) و(الإمامة والسياسة) وكتب محمد عمارة مصدراً لتاريخ صدر الإسلام والعصر الراشد، لا يكون قد خالف المنهج فقط، بل يكون قد داس المنهج بنعاله ، وتخطى أوليات المنهج وأبجدياته ، بل برهن أنه دخل ميداناً ليس من فرسانه، وأقحم نفسه في علمٍ ليس من رجاله ، فمن هنا ضلّ عن الصواب وأضلّ غيره، ورحم الله إمامنا ابن حجر العسقلاني : إذ يقول : « من تكلّم في غير فنّه أتى بالعجائب»

تساؤل :

هل هناك مَن يقعد لنا على منابع الفكر ليسممها ؟

هل هناك أيدٍ خبيثة توجه ثقافتنا وفكرنا؟

إن علماءنا وأئمتنا لم يقصروا ، فقد اجتهدوا ، وبذلوا في سبيل النقد والتمحيص والتحفظ على الأهواء في نقل التاريخ مابذلوا ؛ ولكننا نقرأ من

زاوية يرادُ لنا أن نقرأ منها.

قديماً كتب القاضي ابن العربي كتابه (العواصم من القواصم)، وكتب الأصفهاني كتابه(الأغاني) فلماذا كل مثقفينا ، ومؤرخينا ، ودارسينا ينهلون من ذلك النهر المسموم(الأغاني) دون سواه ، من المسئول عن ترويج هذا الكتاب؟ وتيسيره ، وتقريبه، ما بين (مختصر الأغاني) و ..(وأين)(العواصم من القواصم)؟ لقد طُبع منذ نحو ستين سنة ، وقام العلاّمة محب الدين الخطيب بتقديمه وتحقيقه والتعليق عليه ، وتقريبه ، فلماذا لا يذكره أحد.

وفي عصرنا الحديث كان عندنا مدرستان ، مدرسة الشيخ علي يوسف ، وعبد الله النديم ، ومحمد رشيد رضا ، وأحمد زكي باشا ، والعلامة أحمد تيمور، ومحب الدين الخطيب ، ومصطفى صادق الرافعي ، ومن معهم . ومدرسة لطفي السيد ، وأحمد أمين ، وقاسم أمين ، وطه حسين ، وتلاميذهم.

فلماذا شاع فكر المدرسة الثانية؟ في تفسير تاريخنا وفي موقفنا من (أفكار الآخرين) ، ولم يشع فكر المدرسة الأصيلة النقية ؟

والجواب معروف لكل ذي بصر وبصيرة ، ذلك أن المدرسة الثانية ، مدرسة التغريب هي التي ورّثها المستعمر مقاعد التوجيه وقيادة الفكر ، ومكن لها وحمى ظهرها ، باعتبارها حاملة لوائه والمقاتلة في سبيله. فإلى متى لا يعي (المسلمون المعاصرون) هذه الحقيقة ؟

خاتمة ونتائج :

١ - نؤكد سلامة المنهج -منهج الدكتور رضا محرم- الداعي إلى تفسير التاريخ ودراسته ، وتحليل مشكلاتنا المعاصرة في ضوئه . ولكن بشرط التحفظ على أهواء المؤرخين ، والالتزام بمنهج رجال الحديث في نقد الروايات التاريخية ، وتمحيصها ، ثم مع ذلك الاطمئنان إلى سلامة المشاعر الإسلامية والعواطف الدينية لمن يدرس التاريخ ويحلله،

حتي يعرف كيف يستجيب للحدث بحسٍّ إسلامي . وضمير ديني ، فيقدر على استيعابه بجميع ملابساته ، ومعطياته، فيحسن تفسيره ، ويصدق تحليله.

٢ - نحن مع الأخ الباحث في أن الخلاف والاختلاف في الساحة الإسلامية ، غير محكوم بضوابط ، ولا قوانين، بل كثيراً ما يفلت الزمام ، فيؤدي إلى تبديد كثيرٍ من الطاقات ، وإهدار قُوى كان الأولى بها أن توجه إلى مجالٍ غير مجال الصراع.

٣ - ولكن الذي نرفضه ولا نوافق عليه أن هذه الظواهر التي نشكو منها الآن ثمرة طبيعية(للموروثات التاريخية) ، فقد بيّنا أن ما فسره الأخ الباحث على أنه من وقائع التاريخ وموروثاتنا السابقة ، ليس إلا روايات وتلفيقات سممت نبع ثقافتنا ، بعمدٍ وتدبيرٍ أحياناً ، وبخطأ وغفلة أحياناً أخرى .

ولذلك نرجو أن يعاود الأخ بحثه -وجميع المخلصين- عن أسباب أخرى ودوافع أخرى لما يجري الآن من صراع ويدور من نزاع ، حتي إذا عرفنا مكمن الداء أمكن العلاج.

٤ - أعتقد أن الأخ الكريم سيوافقني ويرجع عن قوله بالنسبة للتعامل (مع الآخرين الذين هم غرباء عنا) : إنه لابد من أخذ الحضارة -إذا أردنا أخذها- بكل معطياتها وآثارها المعنوية والاجتماعية والخلقية ، فما أعرف -من المنصفين- سلفاً قال بهدا الرأي.

وأجده واجباً عليّ أن أكرر للأخ الدكتور محرم الشكر والدعاء لي وله بالتوفيق والسداد .

* * *